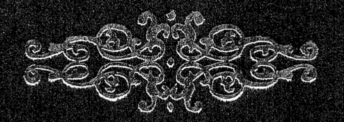


تفسير جزء والذاريات

من القرآن الكريم



هدية

من أبناء

مؤسسة الخدمات الاجتماعية بالأوزاعي

تفسير
جزء والذاريات



بقلم
عفيف عبد الفتاح طبّاره

طبعة ثانية منقّحة
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الموزعون الوحيدون لجميع أقطار العالم :
دار العلم للملايين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لفضيلة قاضي الشرع الشريف
الشيخ حسين يوسف غزال

الحمد لله والصلاة والسلام على هادينا محمد رسول الله.

« من أراد أن يخاطبه الله فليقرأ القرآن ».

بهذا الإيحاء يشعر المؤمن عندما يتلو آيات الله أو يسمعها تتردد بكرة واصيلاً، فيخالجه الشعور بالخشية تسري في عروقه، وبالرهبة تأخذ عليه مجامع قلبه، وبالتهيب يلف جوانب نفسه، كيف لا، ومن آيات الله ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ فيستجيب لأوامر الله بنفس راضية وقلب مطمئن.

وهذا الجزء من القرآن «والذاريات» فيه اطلاق النظر في الكون الفسيح يستخلص منه العبرة، وتدعو آياته إلى تسريح الفكر بمشاهد العالم العلوي، ليعود المؤمن منها محمّلا بثمار المعرفة، متسربلاً برداء اليقين، شاهداً على عظمة الخالق ببديع خلقه، وعظيم صنعه، وفي هذا يقول تعالى في سورة الواقعة: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾. ويقول سبحانه في سورة الذاريات: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعون ﴾.

تستوقفنا هذه الآيات بإيحائها الكبير، ومدلولها البعيد على عظمة الكون وما يحتويه من ملايين الملايين من النجوم، تُعلن ذلك في وقت كان فيه علم الفلك في طور الطفولة.

ولا تقتصر آيات القرآن في الدعوة إلى النظر في العالم العلوي بل تدعو الإنسان إلى النظر في الأرض وما تحتويه من عجائب الخلق، وكذلك النظر في جسم الإنسان وما يحتويه من أسرار الخلقة، كل ذلك ليزداد الإنسان إيماناً بخالقه، وفي هذا يقول تعالى في سورة الذاريات: ﴿ وفي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُم أَفَلا تُبْصِرُون ﴾.

ولقد أحسن المؤلف الكريم الأستاذ عفيف طبارة وهو من تستوقفه مثل هذه الآيات الداعية للتأمل في خلق الإنسان والكون فأعطاها ما تستحق من تنويه وتعليق، لافتاً النظر إلى أسرارها وإعجازها ودلالتها على أن هذا القرآن وحي إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الجزء من القرآن أكثره مكي « أي نزلت آياته بمكة » والآيات المكية تأخذ طابع غرس العقيدة في النفوس، وتثبيت الإيمان في القلوب، وذلك بلفت النظر إلى الكون ودلالته على عظمة الخالق، أو بالترغيب والترهيب بذكر ما أعد الله للمؤمنين المتقين من نعيم، وما أعد للكافرين العاصين من عذاب أليم، كما نرى في سورتي الواقعة والطور، أو باستعراض أحوال الأمم الغابرة التي عصت ربها، وكذبت رسلها، فأصابها العذاب والهلاك كما نرى في سورة القمر.

وفي سورة الطور إثبات لنبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلهي، وذلك بتحدي العرب الذين ينكرون نبوته بأن يأتوا بمثل هذا القرآن إذا كان من تأليف محمد ﷺ كما يدعون وفي هذا يقول تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾.

وفي سورة الذاريات يبين الله الغاية من خلقه للإنس والجن بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ وهنا يجول المؤلف في أسرار العبادة ومراميها، وأثرها في سلوك الإنسان وسكينة النفس.

ونشير إلى أنه ورد في سورتين من هذا الجزء تكرار لآية واحدة أولاهما في سورة الرحمن ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث تكررت إحدى وثلاثين مرة، ودفعاً لما يمكن أن يحصل من سوء فهم عند بعض الناس نبادر القول، بأن التكرار جاء تأكيداً لنعم الله على عباده من الإنس والجن حتى يقروا بها ولا ينكروها، وهي نعم ظاهرة تملأ نفوسهم وحياتهم.

والآية الثانية جاءت في سورة القمر ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذابِي وَنُذُرِ ﴾ وتكرارها جاء عقب مشاهد العذاب للمكذبين برسل الله ليأخذ المؤمن منها دروساً وعبراً تضع نفسه على الطريق القويم.

وبعد لا نستطيع في كلمة موجزة أن نستعرض كل ما في هذا الجزء من روعة وعظمة فهذا ما ستجده أخي القارىء عند قراءتك له بأسلوب مؤلفه الذي عودنا على طريقته المحببة من التقريب والإيضاح، والسهولة والإفصاح، فيقبل عليه الجمهور بشغف وشوق لِمَا اشتمل عليه من تبويب وذوق، وهو بهذا يكمل الجزء الرابع من تفسير القرآن.

والله أسأل أن ينتفع به جمهورنا المسلم، ويقبل عليه بقلبه وروحه فيجد فيه الضياء للقلب، والنعيم للروح، ﴿ إِنَّ هذا القُرآنَ يَهْدي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المؤْمِنينَ الذين يَعْمَلُون الصَّالِحَات أَنَّ لَهُمْ أجْراً كبيراً ﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ⑥ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ⑦ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ⑧ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ⑨ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ

شرح المفردات

وَالذَّارِيَات ذَرْواً: قَسَمٌ بالرياح التي تفرق الأشياء تفريقاً.

فَالحَامِلاَتِ وِقْراً: السحب الحاملة ثقلاً من الماء.

فَالجَارِيَاتِ يُسْراً: السفن تجري على الماء جرياً سهلاً.

فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً: الملائكة التي تقسّم الأمور بين الخلق على ما أمر الله به.

إنَّ مَا تُوعَدُون لَصَادقٌ: إن ما وعدكم الله من البعث والثواب والعقاب لحقيقي.

إنَّ الدِّينَ لَوَاقعٌ: إن الجزاء بعد الحساب واقع لا محالة.

والسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ: قَسَمٌ بالسماء ذات الخَلْق الحسن والبنيان المتقن.

إنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ: إنكم أيها الناس لفي قول مختلف في هذا القرآن فمن مصدّق به ومكذّب له.

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ: يُصرف عن الإيمان بالقرآن من صُرف عنه.

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ: لُعِنَ الكذابون.

﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

شرح المفردات

فِي غَمْرَةٍ: في غفلة وضلالة.

سَاهُونَ: لاهون غافلون عن الحق الذي جاء به محمد ﷺ.

أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين: متى يوم المجازاة والحساب.

يُفْتَنُونَ: يُعذبون بالإحراق بالنار.

فِتْنَتَكُم: عذابكم المعدّ لكم جزاء كفركم.

مَا آتَاهُم رَبُّهُمْ: ما أعطاهم من الثواب والكرامات.

يَهْجَعُونَ: ينامون ليلاً.

الأَسْحَارِ: أواخر الليل.

للسَّائِلِ: المحتاج الذي يسأل الناس لفاقته.

الْمَحْرُوم: الفقير المتعفّف الذي لا يسأل الناس فيُحرم الصدقة.

وفي الأرض آيات للموقنين: وفي الأرض علامات ودلائل على وجود الله لأهل اليقين الذين يعرفون ربهم ببديع صُنعه.

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أفلا تُبْصِرُونَ: وفي خلق أنفسكم علامات تدل على القدرة الإلهية.

وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ
إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ
سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ
سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ
فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ
أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ

شرح المفردات

ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ: ضيوف إبراهيم وكانوا من الملائكة.
اَلْمُكْرَمِين: كرام عند الله لأنهم من الملائكة.
قَوْمٌ مُنْكَرُونَ: قوم غرباء غير معروفين.
فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ: ذهب إلى أهله خفية عن ضيوفه.
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً: أحسَّ في نفسه الخوف منهم.
في صَرَّةٍ: في صيحة وضجة.
فَصَكَّتْ وَجْهَهَا: لطمته بيدها تعجباً.
عَجُوزٌ عَقِيمٌ: عجوز عاقر لا تلد.
فَمَا خَطْبُكُمْ: فما شأنكم وقصتكم.

عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ
مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ
﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ
فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾

شرح المفردات

مُسَوَّمَةً: معلّمة بعلامة.

تَرَكْنَا فيهَا آيَةً: أي تركنا في تلك القرى علامة تدل على ما أصابهم من العذاب.

بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ: بحجة واضحة، وهي المعجزات التي أيّد الله بها موسى.

فَتَوَلَّى: فأعرض.

برُكْنه: أي بما يركن إليه من الجيوش التي كان يتعزّز بها ويتقوى.

فَنَبَذْنَاهُم في اليَمّ: فألقيناهم في البحر.

وَهُو مُليمٌ: وهو آت بما يُلام عليه من الكفر.

الرِّيحَ العَقِيمَ: الريح المهلكة التي لا خير فيها ولا بركة.

مَا تَذَرُ من شيء أَتَتْ عَلَيْهِ: ما تترك شيئاً مرت عليه.

جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ: جعلته كالشيء البالي المفتت الهالك.

تَمَتَّعُوا حتى حِينٍ: عيشوا إلى وقت انقضاء آجالكم.

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ

شرح المفردات

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ: تكبَّروا عن طاعة ربهم.
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ: فأهلكتهم صيحة أو نار من السماء.
وَهُمْ يَنْظُرُونَ: وهم يشاهدون العذاب.
فَاسِقِينَ: خارجين عن طاعة الله.
بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ: بنيناها بقوة وقدرة.
وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا: مهّدناها وبسطناها للسكن.
فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ: فنعم المسوُّون المصلحون لها.
خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ: خلقنا صنفين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثى.
لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ: كي تعتبروا وتعلموا أن الله واحد لا شريك له.
فَفِرُّوا إلى الله: فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به واتباع أمره
نَذِيرٌ: مُنذر ومحذّر من عذاب الله.
مُبِينٌ: بيّن الرسالة بالحجة الظاهرة والمعجزة الباهرة.

إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم
مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ
الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)
مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ
أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

شرح المفردات

طَاغُونَ: متجاوزون الحد في الكفر والعصيان.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ: فَأَعْرِض عنهم.

فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ: أي لا لوم عليك فقد أديت رسالة ربك.

وَذَكِّرْ: داوم على تذكير الناس وعِظْهم بالقرآن.

لِيَعْبُدُونِ[1]: ليخضعوا لي

ذَنُوباً: نصيباً من العذاب.

مثل ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ: مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا من قوم نوح وعاد وثمود.

فَوَيْلٌ: فهلاك وشدة عذاب.

---

(١) أصل الفعل ليعبدوني حذفت الياء لمراعاة (الفواصل) وهي أواخر الآيات.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

إيضـاح و دروس

هذه السورة تؤكد وقوع البعث والجزاء في الآخرة، وتنذر المكذبين بها بسوء المصير، كما تبيّن مصير المتقين، وما أعد الله لهم من نعيم في الآخرة جزاء طاعتهم لربهم وإحسانهم، كما تلفت الأنظار إلى التأمل في الأرض وفي الأنفس وما أودع الله فيهما من عجائب الصنع التي تشهد بوجود خالق لها.

كما تحدثت هذه السورة عن قصة إبراهيم مع ضيوفه الملائكة، ثم تعرضت لأحوال بعض الأمم السابقة، وما أصابهم من الهلاك جزاء كفرهم وعصيانهم، كذلك تحث هذه السورة على الرجوع إلى الله وإفراده بالعبادة.

إستهلت هذه السورة بالقسم بجملة أمور لتأكيد أن البعث والجزاء في الآخرة كائن لا محالة:

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً . فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً . فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً . فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾.

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾ قَسَمٌ بالرياح التي تذرو الرمال والتراب واللقاح وتفرقها، ومعنى ذرا: فرق وبدد.

﴿ فَالحَامِلاَتِ وِقْراً ﴾ قَسَمٌ بالسحب المثقَّلة بالمطر، والوقر: الحمل الثقيل.

﴿ فَالجَارِيَاتِ يُسْراً ﴾ قَسَمٌ بالسفن الجارية في البحر بسهولة، واليُسر هو السهل في كل شيء.

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ قسم بالملائكة التي تتولى تقسيم أمور العباد وأرزاقهم بأمر الله ومشيئته.

ويحتمل أن يكون الْمُقْسَمُ بها هي الرياح فقط، فهي التي تذرو التراب وتفرّقه وتحمل السحب المثقَّلة بالمطر، وتجري بالسحب بيسر وسهولة بتسخير

الله، ويقسِّمُ بها سبحانه أرزاق العباد بالماء الذي ينزل من السماء.

أما الأمر المقسم عليه، أو مَا يُسَمَّى جواب القسم فهو: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أي إن ما وعدكم به ربكم من بعث الأجسام حيّة يوم القيامة بعد موتها، لهو وَعْدٌ صادق لا ريب فيه، وأن الجزاء والحساب على الأعمال لأمر حاصل يوم القيامة لا محالة.

فالله سبحانه أقسم في مستهل هذه السورة لأن القسم كان شائعاً عند العرب ومن أساليب كلامهم للدلالة على تأكيد أمر أو الاهتمام به، والقسم في هذه السورة لإظهار أهمية المقسم به وما فيه من الدلالة على قدرة الله وحكمته، وأن الله الذي خلق الرياح والمياه وغيرها لقادر على إعادة الأجسام كما بدأها أول مرة.

وما يكاد هذا القسم ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسماء على أنهم مختلفون في موضوع القرآن والنبوة ويوم الجزاء في الآخرة، وأن المكذبين بهذه الأمور سيستحقون العذاب في الآخرة:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ. قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُون . يَسْأَلُون أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين. يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

فالله سبحانه أقسم بالسماء ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أي ذات البنيان المحكم المتقن وذات الخلق السوي الحسن، والقسم بها دعوة للتأمل بها تأملاً يظهر عظمة خالقها.

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ هذا جواب القسم، أي إنكم يا أهل مكة تختلف أقوالكم في محمد والقرآن ويوم الجزاء، فمن مصدّق بأن محمداً رسول الله، والقرآن وحي إلهي وأن هناك يوم الجزاء بعد هذه الحياة حيث يُدان الناس بأعمالهم إما إلى نعيم وإما إلى عذاب. ومن مكذِّب بمحمد وواصف له بأنه ساحر أو مجنون أو كاهن، وأن القرآن ليس كلام الله، وأنه لا بعث ولا جزاء بعد هذه الحياة.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يُصرف عن الإيمان بالله وبرسالة نبيه محمد ﷺ من صُرف ممن اختار لنفسه الكفر بدل الإيمان.

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ أي لُعن الكذابون الذين اعتمدوا في تكذيبهم على الظن والوهم لأن كل قول صادر عن ظن وتخمين يقال له: خَرْصٌ. وإنما عبَّر الله عن اللعن بالقتل لأن من لعنه الله: أي طرده من رحمته، كان بمنزلة الهالك المقتول. والخرّاصون هم الذين كذبوا على الله فنسبوا له الشريك، ونسبوا له الولد، وكذّبوا محمداً بإنكار نبوته، وكذّبوا في إنكارهم للبعث والجزاء على الأعمال بعد المات، كما هو حال المذاهب المادية التي تنكر الأديان والخالق وتشيع الألحاد. هؤلاء الكذَّابون ﴿ الذينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُون ﴾ في غمرة: أي في جهل وضلالة تغمرهم. ساهون: لاهون غافلون عن أمر الآخرة. فهؤلاء تسترهم وتغطيهم الأضاليل والأوهام والظنون، وهم لاهون عن أمر الآخرة بانشغالهم بالدنيا وملذاتها وشهواتها.

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين ﴾ إنهم يسألون متى يوم الحساب، ولكنه سؤال استهزاء وإنكار، لا سؤال راغب في المعرفة، والوصول إلى الحق. ويأتي الجواب على هذا السؤال سريعاً مرعباً وذلك بعرض مشهد من مشاهد العذاب التي أعدها الله لهم: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يُعذبون بالإحراق يوم القيامة، ويُقال لهم: ﴿ ذُوقوا فِتْنَتَكُم ﴾ أي ذوقوا عذابكم ﴿ هَذَا الذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي هذا الذي كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء وتظنون أنه غير كائن.

وفي مقابل هؤلاء المعذبين في الآخرة يبيّن الله حال المتقين:

﴿ إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ . وَبالأَسْحَار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ والْمَحْرُومِ ﴾.

فالذين اتقوا الله في الدنيا بطاعته واجتناب معاصيه هم في بساتين وعيون في الآخرة، إنهم متمتعون بما أسبغه الله عليهم من الثواب والعطايا. ﴿ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ إنهم كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين لأعمالهم، مراقبين الله فيها، آتين بها على الوجه الذي يريده الله فلذلك جازاهم ربهم بالنعيم الأخروي.

ثم أخذ القرآن يصوّر إحسانهم بما صدر عنهم من عبادة ربهم ومن مساعدتهم للمعوزين:

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ﴾ ما يهجعون: «ما» زائدة للتأكيد، والهجوع النوم القليل بالليل، فهؤلاء كانوا لا ينامون إلاّ قليلاً، ويظلون اكثر الليل في ذِكْرِ الله والصلاة والعبادة، وهذا ما يجعل مشاعرهم وأحاسيسهم مرهفة فاعلة للخير، على عكس اولئك الذين ينامون ويفرطون في النوم، أو الذين يفرطون في السهر على اللهو والملذات.

﴿وَبِالأَسْحَار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ والأسحار: جمع سَحَر وهو آخر الليل وقبيل الصبح. فهؤلاء المحسنون كانوا في أواخر الليل يطلبون المغفرة من ربهم لذنوب اقترفوها. ويقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره: إنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير. والسَحَر هو وقت يُرجى فيه إجابة الدعاء، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن رسول الله أنه قال: «إن الله تعالى يَنْزِل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر لــه، هل من سائل فيُعطى سُؤله حتى يطلع الفجر.

ومن صفات هؤلاء المتقين: ﴿وفي أَمْوَالهم حقٌّ للسَائِل والْمَحْرُوم﴾ والسائل هو الذي يسأل الناس المال لفقره، والمحروم هو الذي حُرِمَ المال، أو المتعفّف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يُعلم فقره وحاجته، أو الذي أُصيب بكارثة طبيعية أو المحتاج العاطل عن العمل.

فالمحسنون أدركوا أن أموالهم ليست كلها ملكاً لهم، بل إن فيها جزءاً لغيرهم من المحتاجين، وهذا الجزء هو «حق» للمستحقين، وَوَصَفَهُ القرآن في موضع آخر من هذه السورة «حق معلوم». وقد أطلق العلماء على هذا الحق

اسم «الزكاة» مع العلم أن هذه السورة مكية - أي نزلت بمكة - والزكاة شُرِعت في المدينة ، ولا يمنع من إطلاق اسم الزكاة على هذا «الحق» فالزكاة في مكة كانت مطلقة القيود ، وكانت موكولة إلى إيمان الأفراد وأريحيتهم وغير محدودة، أما في المدينة فقد نزلت آيات أكدت وجوبها وبينت مستحقيها، كما بيّن النبي ﷺ مقادير الزكاة وشروط وجوبها.

فالزكاة في نظر الإسلام هي «حق» قرره الله سبحانه، فليس في التصدّق بالمال معنى التفضّل والمنَّة من الغني على الفقير، وأي فئة غنيَّة تتمرَّد على أداء هذا الحق فإن من واجب إمام المسلمين أن يقاتلهم حتى يُؤدّوا حق الفقراء في أموالهم، وهذا ما صرحت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ، وهذا ما فعله الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ومن معه من صحابة رسول الله حين قاتلوا الممتنعين عن أداء الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ .

ثم يبيّن القرآن بعد ذلك بعض الدلائل على وجود الله من خلال التأمل في الأرض.

﴿ وَفِي الأَرْضِ آياتٌ لِلمُوقِنين ﴾.

أي إن في الأرض دلائل وعلامات تدل على وجود الله ووحدانيته وذلك بما تحتويه الأرض من نبات وحيوان وجبال وبحار وتربة وغير ذلك ﴿ للموقنين ﴾ وهم الذين يعرفون ربهم ببديع صنعه[1].

---

(١) يقول الدكتور لورنس كولتون ووكر: « ... ولكي يدرك الإنسان روعة هذا العالم وما وراءه من جلال الحكمة والتدبير لا بد أن يدرسه وأن يتأمل ما يدور في الغابات والحقول، عندئذ سوف يجد أن ما كان يعده طبيعياً ليس إلاّ إعجازاً إلهياً يعلو فوق مستوى البشر وتعجز العقول عن إدراك كنهه، وهنا لا سبيل إلاّ الإيمان بالله وقدرته وجلاله ». (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم).

ويقول الدكتور لستر جون زمرمان: «وكلما ازددت دراسة وتعمقاً في طبيعة التربة والنباتات، ازداد إيماني بالله وسجدت له إعجاباً وتقديساً (نفس المصدر).

ولو أردنا استعراض ما على الأرض من حيوانات برية وبحرية وحشرات وما يكتنف حياتها من نظام وأسرار تشهد بوجود الله لاستلزم لذلك مجلدات كثيرة.

والجدير بالذكر أن الطريقة التي سلكها القرآن في الدلالة على وجود الله هي الطريقة التي يستدل بها العلماء الكونيون في العصر الحاضر على وجود الله فالقرآن في كثير من الآيات يوجه الأنظار إلى خلق السماء والأرض، ويدعو إلى التأمل فيها تأملاً يوصل الإنسان إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته وقدرته العظيمة التي خلقت هذا الكون.

وإذ يوجّه القرآن الأنظار إلى خلق الأرض فهو أيضاً يوجّه الأنظار إلى خلق الإنسان وما يحتويه جسمه من عجائب تدل على عظمة القدرة الإلهية، قال تعالى:

﴿وَفِي أَنْفُسِكُم أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾

أي إن في انفسكم ايها الناس آيات وعبراً تدلكم على وحدانية خالقكم وأنه لا إله لكم سواه، أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه فتؤمنوا بوجود ربكم.

أية ناحية من نواحي الإنسان ليست مثار دهشة وعجب؟! أليست اطواره في الرحم آية من آيات الله؟! أليس نظام طعامه وشرابه وتحلل الطعام إلى عناصر مختلفة يذهب كل عنصر إلى حيث يؤدي وظيفته عدا العنصر الذي لا يفيد فيطرد إلى الخارج، أليس في هذا النظام من أسرار الخلق الشيء الكثير؟

أليس نظام توزيع الدم من مكانه الرئيسي وهو القلب إلى جميع أنحاء الجسم بواسطة الشرايين ثم عودته إلى القلب بواسطة الأوردة، ومرور الهواء الجديد الذي جلبه التنفس ليصلح الدم وينقيه، أليس ذلك من آيات الله؟

ماذا أحدثك بعد؟ أأحدثك عن سمع الإنسان وبصره وما فيهما من أسرار الخلقة؟ أم أحدثك عن نُطقه وإحساسه وتفكيره؟ أم أحدثك عما يعرض له من تذكر ونسيان وحزن؟ أم عن الغريزة الكامنة الكافلة لبقاء النوع الإنساني؟ إن كل واحدة من تلك تدل على معجزة من معجزات الله في الخلق التي وقف الإنسان أمامها مبهوراً أمام القدرة الإلهية.

وبعد عرض الدلائل على وجود الله يبين القرآن مصدر رزق الإنسان.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي سبب رزقكم وهو المطر فإنه سبب الأرزاق، وقيل: أي عند الله في السماء رزقكم، وقيل: وفي السماء تقدير رزقكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من خير أو شر، وثواب أو عقاب

ثم يقسم الله بنفسه أن ما يُوعدون به من الرزق والثواب والعقاب هو حق لا ريب فيه مثل نطقهم، فكما أنكم أيها الناس لا تشكُّون في نطقكم حين تنطقون، فكذلك يجب ألا تشكوا في ما وعدكم به ربكم.

وقد يسأل سائل لمَ اختص الله النطق من بين سائر حواس الإنسان وقدراته واعتبره آية على الحق الذي لا يمكن جحوده؟ الجواب: أن النطق هو أظهر حواس الإنسان اعتماداً على إرادته، بينما السمع والبصر والذوق والشم واللمس تحتاج إلى مؤثر خارجي. وقد ذُكِرَ أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية الأخيرة فقال: يا سبحان الله من الذي أغضبه حتى حلف، ألم يصدقوه في قوله حتى ألجأوه إلى اليمين؟ يا ويح الناس!

ثم تأتي بعد ذلك الآيات التالية وفيها الكلام عن استضافة ابراهيم عليه السلام للملائكة الذين جاءوه بالبشرى بولد سَيُرْزَقه:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ. فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ. فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ. فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قالوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ﴾.

أي هل أتاك يا محمد حديث الذين جاءوا ابراهيم بالبشرى؟ وهو استفهام يراد به التعجب والتشويق إلى تلك القصة التي يرويها القرآن الكريم.

وضيف: يطلق على الواحد والجمع، وقد كان ضيوف ابراهيم جماعة من الملائكة أتوا على صورة شبان، وقد وصفهم الله بـ ﴿المكرَمين﴾ لأنهم مكرمون عنده، أو عند ابراهيم لما قام به من حق الضيافة نحوهم. ﴿فقالوا سَلاماً﴾ لابراهيم، فأجابهم: ﴿سلام قوم منكرون﴾ أي سلام عليكم أيها القوم الغرباء، قال ذلك لأنهم ليسوا من معارفه، ويحتمل أنه قال- قوم غرباء - في نفسه ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ فذهب إلى أهله خفية عن ضيوفه ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي أتى لضيوفه بعجل سمين مشوي[1] ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِم قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ أي وضع العجل بين أيديهم داعياً إياهم إلى الأكل.

والآيات التي وصفت ضيافة ابراهيم لزوّاره انتظمت فيها آداب الضيافة، فإن ابراهيم جاء بطعام من حيث لا يشعرون، ولم يمتن عليهم بقوله سآتيكم بطعام بل جاء به خفية عنهم، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل سمين فقرَّبه إليهم ولم يضعه بعيداً، ولم يأمرهم بالاقتراب منه بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً بالأكل بما يشق على اسماعهم بل قال ﴿أَلاَ تَأْكُلونَ﴾ دعوة منه إلى الطعام بلطف، لأن ألا، تأتي في اللغة للحث بلطف.

وطبعاً هؤلاء الملائكة لم تمتد أيديهم إلى الطعام لأنهم لا يأكلون ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي أحس ابراهيم في نفسه الخوف منهم عندما رأى إعراضهم عن الطعام، وظنَّ أن امتناعهم عنه هو لشرٍّ يبيّتونه له، وذلك ان أكل الضيف فيه أمان واطمئنان للمضيف ودليل على انبساطه، وقد لاحظ الضيوف آثار الخوف على إبراهيم فكشفوا له عن حقيقتهم وقالوا له: ﴿لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي قالوا لإبراهيم نحن ملائكة لا بشر فلا تخف منا فقد أرسلنا ربك إِلَيْك بما يسرك، وَبشّروه بولد سيرزقه وهو الذي سمّاه: اسحق، ووصفه الله بصفة العلم ليزداد سرور أبيه، والعلم أكمل صفة في بني الإنسان، وإنما قال ﴿عليم﴾ ولم يقل عالم، لأنها صيغة مبالغة تدل على أنه سيكون راسخاً في العلم محيطاً بشرائع الله.

---

(١) جاء في القرآن في موضع آخر: (وجاءهم بعجل حنيذ) أي مشوي.

سمعت سارة زوجة ابراهيم هذه البشرى وكانت في إحدى زوايا البيت ففوجئت بهذا النبأ ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرأَتُهُ في صَرَّةٍ﴾ أي أقبلت سارة نحو الضيوف في صيحة وضجة، وكانت صيحتها من الدهشة ﴿فَصَكَّت وَجْهَهَا﴾ أي ضربت وجهها بيدها على عادة النساء عند التعجب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي قالت: أنا عجوز عاقر فكيف ألد، والعاقر لا تلد إما لمرض أو لكبر في السن. لقد صرخت سارة دهشة وضربت وجهها عجباً لأن الخبر جاء على غير ما يألفه البشر، وغاب عن بالها أن هذه البشرى تحملها الملائكة بشارة من الله حيث لا مجال للعجب والدهشة، وأن أمر الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولذا قالت لها الملائكة: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هو الحَكيمُ العَليمُ﴾ فهو سبحانه الحكيم فيما يفعله، العليم بمصالح خلقه، وقد رُوي أن سارة ولدت اسحق ولها من العمر تسع وتسعون سنة وابراهيم له من العمر مائة سنة.

إطمأن ابراهيم عليه السلام لضيوفه عندما علم أنهم من الملائكة، وسُرَّ للبشرى التي بشروه بها، ولكن البشارة يكفي فيها ملك واحد فقط لذلك أدرك أنه لا بد أن يكون لهم أمْرٌ أهم من البشارة التي جاءوا بها، عندئذ سألهم عن المهمة التي جاءوا لأجلها:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُم أيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قالوا إِنّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ . فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ المؤْمِنِينَ. فما وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَتَرَكْنَا فيها آيةً لِلَّذين يَخَافُونَ العَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

كلمات قليلة أخّاذة تصف العذاب الذي ألحقه الله بقوم لوط، تقرع القلب، وتقشعر لهولها الجلود.

لقد ذكر الله قصة لوط في عدة سور من القرآن، وذكرنا في سورة الطور ملخصاً لها، وفي هذه السورة يبين الله نوع العذاب الذي أصابهم.

لقد قال إبراهيم لضيوفه الملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما

شأنكم وقصتكم أيها المرسلون من عند الله ﴿قالوا: إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ والإجرام: هو الذنب العظيم، والفاحشة المعروفة في قوم لوط هي: اللواط. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ أي لنرجمهم بحجارة من طين متحجر ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي لها علامة فارقة، قيل إنها كانت مخططة بسواد وبياض، وقيل: هي حجارة معروفة بأنها حجارة العذاب ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي معدَّة في علم الله لعذاب العصاة ﴿للمسرفين﴾ للمجاوزين الحد في الفجور.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لما أراد الله إهلاك قوم لوط أخرج من كان في القرية من المؤمنين لئلاّ يهلكوا ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي لم يكن في القرية غير بيت واحد من المسلمين، والمراد بهؤلاء المسلمين: لوط وابنتاه، وقيل كانوا ثلاثة عشر من المؤمنين. ومعنى المسلمين: أي أنهم كانوا مصدّقين بقلوبهم، ناطقين بألسنتهم بكلمة الإيمان، مطيعين بجوارحهم ما جاء به لوط عن ربه من الهدى، وكلمة المسلمين تطلق في القرآن الكريم على أتباع الأنبياء السابقين وأتباع محمد ﷺ.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أي وأبقينا في مكان قرى قوم لوط علامة دالة على نوع العذاب الذي أصابهم فيعتبر من كان عنده استعداد للاعتبار والخوف من عذاب الله.

والبحر الميت في الأردن هو الموضع الذي كان فيه قوم لوط، وهو لم يكن موجوداً قبل إهلاك قوم لوط، وإنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي المدن سافلها وصارت الأرض اخفض من سطح البحر بنحو ٤٠٠ متر، وقد جاءت الأخبار في السنين الماضية عن اكتشاف آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت[١].

ثم ينتقل القرآن فيذكر بإيجاز ما حل بفرعون وقومه جزاء إعراضهم عن هدى الله وتكذيبهم برسالة نبيهم موسى، هذا مع العلم أن قصة موسى مع

---

(١) قصص الأنبياء، للأستاذ عبد الوهاب النجار.

فرعون هي أكبر قصص القرآن. يقول تعالى:

﴿وَفي مُوسَى إذْ أَرْسَلْنَاهُ إلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أو مَجْنونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ في اليَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

أي في قصة موسى عظة وعبرة حين أرسله الله بالهدى إلى فرعون. وفرعون هو: منفتاح بن رعمسيس الثاني. ﴿بِسُلْطَانٍ مُبينٍ﴾ أي بحجة وبرهان ظاهر يشهد بنبوته، وهي معجزة العصا التي انقلبت حية لتبتلع كل ما صنعه سحرة فرعون وكذلك معجزات أخرى أيده الله بها. ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾[1] أي أعرض عن الإيمان مع قومه الذين كان يتقوى بهم ويعتمد عليهم وهم جنوده، ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ﴾ وإنما قال ذلك تمويهاً على قومه، لا شكاً في صدق نبوة موسى، فإن ما رآه من المعجزات لا يتحقق على يد ساحر أو يفعله من به مس من جنون. ويبين القرآن نتيجة كفره مع جنوده: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ في اليَمِّ﴾ أي أمسكناه وجنوده بحيث لا يمكنهم الخلاص وطرحناهم في البحر ليهلكوا غرقاً ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي مستحق اللوم لما عليه من كفر وطغيان.

وذلك أن موسى لما ضرب البحر بعصاه كما أمره الله انشق الماء وصار فيه اثنا عشر طريقاً يبساً، ووقف الماء على جوانبها كالجبل العالي، فسار بنو اسرائيل في الطرق المفتحة لهم في البحر هرباً من فرعون وجنوده، ولحق بهم فرعون وجنوده، فلما رأوا الطرق المفتحة لموسى وقومه ساروا خلفهم فانطبق الماء على فرعون وجنوده وغرقوا جميعاً، ونجّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل باجتيازهم البحر ووصولهم إلى اليابسة.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما حلّ بقوم عاد وثمود وقوم نوح من الهلاك جزاء كفرهم:

﴿وَفي عَادٍ إذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إلاَّ

---

(١) بركنه: ركن الشيء جانبه الذي يسكن إليه وقد استعير هنا لمعنى القوة.

جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ . وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ . فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِم فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ. وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾.

أي وفي قصة عاد عبرة وعظة لمن تأمّل فيها حين أرسل الله عليهم الريح ﴿العَقيم﴾ تلك الريح الخالية من كل منفعة، فهي لا تسوق سحاباً ممطراً، ولا تلقح شجراً فهي كالمرأة العقيم التي لا تنجب. وهي ريح عقيم بمعنى أنها مهلكة مدمرة قاطعة للحرث والنسل وكل خير يملكونه، وهذه الريح ما تترك من شيء مرت عليه إلاّ جعلته ﴿كالرَّميم﴾ أي الشيء الهالك المتفتت البالي.

وفي قصة ثمود أيضاً عظة وعبرة إذ قيل لهم تهديداً - بعد نحرهم الناقة التي نهاهم الله أن يمسوها بسوء - : ﴿تَمَتَّعوا حَتَّى حِينٍ﴾ أي عيشوا متمتعين بلهوكم وغيكم إلى الوقت الذي قَدَّرَهُ الله لهلاككم، هذا وقد كانت مدة تمتعهم ثلاثة أيام ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي تكبّروا عن امتثال أوامر الله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي اخذتهم صيحة جبريل المهلكة: إنها صيحة العذاب، وهم يشاهدونها لأنها جاءتهم في وضح النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ فما قدروا عند نزول العذاب من الهرب ولا النهوض من أماكنهم من شدة الصيحة ﴿وَمَا كانوا مُنْتَصِرِينَ﴾ وما كان لهم ناصر ينجيهم من العذاب الذي حلّ بهم.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ أي وقوم نوح أهلكهم الله قبل هؤلاء المذكورين سابقاً إنهم كانوا قوماً فاسقين، والفسق: هو الخروج عن طاعة الله فيشمل الكفر والمعصية وكل رذيلة، وفي تعليل الإهلاك بالفسق دليل على أن المعاصي سبب في استئصال اصحابها والقضاء عليهم، كما أن في إهلاكهم تطهير الأرض منهم كما يُطهَّر الجسم باستئصال العضو الفاسد، والقرآن يذكر أن هلاكهم كان بالطوفان ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِين﴾ الأنبياء

وبعد أن بيَّن القرآن سُنَّة الله بإهلاك الأمم الظالمة الفاسدة، وجّه الأنظار إلى التأمل في خلق السماء والأرض مما يشهد بوجود الله وعظمته:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . والأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

يبيّن الله تعالى للناس نماذج عن قدرته العظيمة وإبداعه في هذا الكون فيبدأ بذكر خلقه للسماء. ﴿ والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي أوجدناها محكمة متقنة متماسكة كما يتماسك البناء المحكم ﴿ بأَيْدٍ﴾ أي بقوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1] أي إن الله جعل السماء واسعة، أو بمعنى أنه سبحانه لموسع في خلق السماء، وهذا ما سنوضحه فيما بعد في التفسير العلمي.

ثم يذكر سبحانه خلقه للأرض ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي بسطناها ومهدناها ولا ينافي ذلك كرويتها لأن كل بقعة منها ممهدة يسكنها جماعة فوق سطحها ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي فنعم الخالق المبدع الذي هيأ الأرض وسوّاها صالحة للسكن.

وأخيراً يذكر سبحانه مظهراً من مظاهر قدرته ينفي قيام الكون على الصدفة العمياء: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْن﴾ أي من كل شيء خلقنا صنفين مزدوجين كالذكر والأنثى، والليل والنهار، وغير ذلك مما سنوضحه فيما بعد في التفسير العلمي. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذكَّرونَ﴾ أي لكي تتذكروا عظمة الله فتتعظوا وتؤمنوا بوجوده ووحدانيته.

وبعد أن عرض القرآن مظهراً من قدرة الله وعظمته في خلق السماء والأرض أمر بالمسارعة إلى طاعة الله واللجوء إليه وحده:

---

(١) إذا رجعنا إلى أصول اللغة وجدنا(أوسع)تأتي بالمعاني التالية:
أولاً: أوسع الشيء ووسعه: جعله واسعاً.
ثانياً: انطلق الجمل وأوسع: انطلق الجمل مبعداً في سيره.
ثالثاً: اتسع النهار: امتد وطال. وبناء على هذه المعاني لفعل «أوسع» يمكننا أن نقول إن الآية الكريمة: ﴿ والسماء بنيناها بأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون﴾ يفهم منها معنيان اثنان: أولاً أن الله تعالى خلق السماء حين خلقها واسعه وهذا المعنى هو الذي فهمه الأوائل. ثانياً: أن الله خلق السماء حين خلقها واسعة وأنها تمتد وتتسع وتزيد.

﴿ فَفِرُّوا إِلَىَ اللهِ إِنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبينٌ . وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ إِنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

فالفرار هو الهرب، ويكون عادة من الخطر الداهم، والخطر الذي يتربص بالناس هو الكفر والعصيان وغفلتهم عن ربهم، فالفرار يكون بالهرب من العصيان والذنوب والالتجاء إلى الله والعودة إليه بالتوبة والطاعة والعبادة.

وفي الفرار إلى الله لذة روحية يستشعرها كل من اتصل قلبه بالله عز وجل، فمتطلبات الحياة تجعل الإنسان في دوامة من التعب والإرهاق والهم والقلق، ففي الفرار إلى الله تخلّص من هذه الأثقال والهموم، والاتصال بخالق السماء والأرض، مصدر الرزق، ومصدر الخير، ومصدر السعادة للإنسان.

فالفرار إلى الله هو أعمق تعبير يُجَسِّد الاتصال بالله اتصالاً يقوم على الشوق والحب للخالق. فما أجدر بالإنسان في رحلة العمر أن يفرّ إلى الله الفينة بعد الفينة، ويعيش في ملكوت الله مسبحاً بحمده، شاكراً لأنعمه، مستغفراً لذنبه مما يسبغ على النفس سعادة وطمأنينة.

﴿إنّي لَكُمْ منه نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي قل لهم يا محمد إني أنذركم عذاب الله وأخوفكم من انتقامه ﴿مبين﴾ يبين لكم إنذارات الله بالحجة الظاهرة والبرهان القاطع.

﴿ وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ﴾ فهذه الآية تنهى الناس أن يُشركوا مع الله معبوداً آخر، ويخطىء بعض الناس حين يتصورون أن هذا المعبود الآخر لا يكون إلاّ صنماً من الحجارة، في حين أن المعبود الآخر قد يكون المال؛ وفي هذا يقول النبي ﷺ: تعس عبد الدينار والدرهم[1]. وقد يكون المعبود من دون الله: ملكاً أو زعيماً أو رجل دين، وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُون اللهِ ﴾ آل عمران: ٦٤. وقد يكون هوى الشخص ورغباته الجامحة، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مِن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾

---

(١) رواه البخاري.

الجاثية: ٢٣. ﴿إني لكم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ كررها القرآن زيادة في النصح وتحذيراً من عواقب الإشراك بالله.

ثم تنتقل بنا آيات القرآن حاملة العزاء للنبي ﷺ بسبب موقف العداء من قومه موضحة له أن هذا الموقف ينطبق على سائر الأمم مع أنبيائهم:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ. فَتَولَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ. وَذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

فالله يخبر نبيه بأن شأن الأمم مع أنبيائهم في الإنكار والإيذاء والجحود مثل شأن أمته معه، ما أتى الذين من قبلهم من الأمم من رسول من عند الله إلاّ قالوا: ساحر أو مجنون ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب من حالهم، أي هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب، ووصف كل رسول بأنه ساحر أو مجنون ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي لم يتواصوا بذلك بل جمعتهم صفة الطغيان، وهو مجاوزة الحد في العصيان.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُم﴾ أي أعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين بالله وكُفَّ عن جدالهم حتى يأتي أمر الله فيهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ فليس عليك ملامة عند الله بعد إنذارك إياهم لأنك قد أديت ما عليك وبلّغتَ رسالة ربك.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المؤمِنين﴾ أي عظ يا محمد بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفع فريقاً معيناً هم المؤمنين، وخصَّهم الله بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالوعظ. وهذه الآية هي موجهة في الوقت نفسه إلى كل داعية إلى الله بأن يواظب على الوعظ والتذكير بهدى الله وأن لا يقول قد بُحَّ صوتي ولا من مجيب: فإن دعوة الحق لا بد أن تجد آذاناً صاغية، وأن الحق لا بد في النهاية أن يقلع الباطل من أساسه.

ثم ينتقل القرآن فيبين الغرض والهدف من خلق الله للإنس والجن:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾

فالقرآن يبين الغاية من خلق الناس والجن ألا وهي عبادة الله. وعبادة الله من أسس الإسلام جاء في الدعوة إليها كثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية وكان مظهرها الأول هو الصلاة التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم والليلة، مع مظاهر أخرى للعبادة وهي: الصوم والحج والزكاة والتي أُطْلِقَ عليها جميعاً اسم العبادات وهي تشكل مع الشهادتين - الشهادة بألوهية الله وحده، والشهادة بنبوة محمد ﷺ - الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام. ولأهمية العبادة يحسن بنا أن نقف قليلاً عندها لنستعرض بعض معانيها ومظاهرها استعراضاً موجزاً.

إذا رجعنا إلى معاجم اللغة رأينا معنى عبادة الله: الخضوع والتذلل لله والتنسك له، مع طاعته والانقياد لأمره.

فالله سبحانه حين يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي ما خلقتهم إلاّ لآمرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي. ويقول بعض المفسرين: ما خلقتهم إلا ليعرفوني، ومن عرف الله عرف استحقاقه للحب والتعظيم والحمد والثناء والشكر، ومن عرف الله وعظمته وجه قوى النفس إلى البرّ والخير، وكفها عن الإثم والشر.

فغاية الخلق هي العبادة، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية في القرآن والسنة لعبادة الله، وما من شك في أن الله لا تضره معصية، ولا تنفعه طاعة فهو سبحانه الرزاق المعطي بلا حدود، وهو الغني عن عباده ولهذا جاء في القرآن: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٧.

وما كانت العبادة إلاّ لأجل تكميل الإنسان، فمن فضل الله على عباده أنه فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة، ففائدة العبادة راجعة إلى العابد نفسه فضلاً من الله ورحمة.

فالإسلام حين أمر بعبادة الله فإنه كان يرمي إلى تحرير الإنسان من

عبودية الإنسان التي لازمته السنين الطوال: من ملوك الأرض المستبدين، وزعمائها الطاغين، ورؤساء الدين المتألهين، كما أراد الإسلام أن ينزع من ذهن الإنسان بأن هؤلاء من عنصر أفضل، وأن بيدهم النفع والضر.

والمتمعن في القرآن والسنة يرى أن للعبادة مستلزمات شتى، منها:

عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، جاء في القرآن: ﴿ واعْبُدوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ النساء: ٣٦.

« وعن معاذ بن جبل قال: كنت ردف[١] النبي ﷺ فقال: يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يُعذب من لا يشرك به شيئاً »[٢]

وهذا الحق باق ما بقي الإنسان على ظهر الأرض، ولهذا يقول تعالى:

﴿ واعْبُد رَبَّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ اليَقين ﴾ الحجر: ٩٩. واليقين هو الموت.

ومن مستلزمات العبادة: الشكر لله، ولهذا جاء في القرآن: ﴿ وَاشْكُرُوا لله إنْ كُنْتُم إيَّاهُ تَعْبُدون ﴾ البقرة: ١٧٢. وقال سبحانه: ﴿ بَل اللهَ فاعْبُد وكُنْ مِنَ الشّاكِرين ﴾ الزمر: ٦٦.

ومعنى الشكر لله: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده الإنسان ثناء على ربه، واعترافاً له بنعمه عليه، وأن يكون قلب الإنسان مملوءاً محبة لله على هذه النعم، وشهوداً منه بأنها من الله فضل وإحسان، وتكون جوارحه مشتغلة بطاعة الله استسلاماً له وانقيادا.

وقد كان رسول الله محمد ﷺ أشد الناس عبادة لربه، وأكثر الشاكرين له

(١) ردف: راكباً خلفه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

فقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل (أي بالعبادة) حتى تتفطر[1] قدماه، فقلت له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله؟، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبداً شكورا[2]

« هذا ولقد أراد الإسلام أن يصيّر الحياة - في شكلها وجوهرها - إلى عبادة، وليس معنى ذلك أن كل إنسان يلزمه أن يعتكف في المسجد عابداً، وإنما معنى ذلك أن كل ما يأتيه الإنسان، وكل عمل يدعه الإنسان يجب أن يتوفر فيه أمران:

الأول: أن يصدر في العمل، أو في الترك عن الدين قرآناً أو سنة.

الثاني: أن يريد بعمله أو بتركه وجه الله.

فإذا كان الأمر كذلك كان عبادة »[3].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ البيّنة: ٥ . والإخلاص لله أن يأتي الإنسان بالأعمال لا يشوبها رياء قاصداً بذلك وجه الله ورضاه.

ويقول النبي ﷺ: « إنَّما الأَعمال بالنيات وإنما لكلِّ امرىءٍ مَا نَوَى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[4].

فإرادة الإنسان بعمله وجه الله يجعل منه عبادة يؤجر عليها ويُثاب.

والحديث التالي له مغزاه العميق في الدلالة على ما نريد إيضاحه:

فقد رُوي عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً قالوا يا رسول الله: « ذهب

---

(١) تتفطر: تتشقق.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) الإسلام والإيمان للدكتور عبد الحليم محمود.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

أهل الدثور[١] بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بُضع أحدكم[٢] صدقة، قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوتَه ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وِزْر؟ فكذلك، إذا وضعها في الحلال كان له أجر »[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « كل سُلامى[٤] من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة »[٥].

فالعبادة عنصر من عناصر شخصية المسلم فهي التي تذكره بالله، والتذكير بالله يعمر القلب بعظمته سبحانه، وإذا عمر القلب بعظمته وجّه قوى النفس إلى البرّ والخير وكفها عن الإثم والشر، بالإضافة إلى ذلك فإن العبادة تُضفي طمأنينة على النفس وتُبعد عنها الهمَّ والقلق.

وبعد أن بين القرآن الغاية من خلق الإنس والجن أتبع ذلك بقوله:

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

فالله تعالى يقول: ما أريد من الإنس والجن من رزق لأني غني عن العالمين،

---

(١) أهل الدثور: أهل الثراء.
(٢) وفي بضع أحدكم: وفي شهوة أحدكم.
(٣) رواه الإمام مسلم.
(٤) سُلامى: عظام الأصابع، وقيل كل عظم في البدن.
(٥) رواه البخاري ومسلم.

وما أريد أن يطعموني لأني أُطعِمُ ولا أُطعَم. فالله سبحانه هو وحده المتكفل برزق عباده، وهو ذو القدرة الباهرة، شديد القوة لا يطرأ عليه عجز ولا ضعف.

فعلى الناس أن يعملوا ويسعوا في الأرض لطلب الرزق، ويأملوا من الله الرزق والعطاء، وأن لا يَذلّوا لمخلوق في طلب الرزق لأن الرزق بيد الله لا بيد العباد.

ثم يختم الله هذه السورة بإطلاق وعيد للكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ:

﴿فَإِنَّ لِلَّذين ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ. فَوَيْلٌ للذينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الّذي يُوعَدُونَ﴾.

ومعنى ذنوباً: أي نصيباً من العذاب، أي إن للذين ظلموا أنفسهم بالكفر نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم في الكفر من الأمم الماضية، فلا يستعجلون عذاب الله قبل أوانه فإنه واقع بهم لا محالة عاجلاً أو آجلاً ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذين كَفَروا﴾ أي هلاك للذين كفروا ﴿مِنْ يَوْمِهِمُ الذي يُوعَدونَ﴾ قيل إن هذا اليوم الذي يوعدون به بالعذاب والهلاك هو يوم القيامة، وقيل هو يوم معركة بدر الذي قتل فيه الكثير منهم.

التفسير العلمي

الزوجية في كل شيء:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ الاعجاز العلمي في هذه الآية هو أن الله أثبت الزوجية في كل شيء في هذا الكون وهذا من الحقائق التي توصل إليها العلم حديثاً.

فمن المعروف قديماً أن الزوجية هي أساس في كيان النبات والحيوان.

وهذا ما صرح به القرآن حين قال عن النبات: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ الشعراء: ٧. وقال عن الإنسان والحيوان: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ الشورى: ١١.

أما ما ذهب إليه القرآن من اثبات الزوجية لكل شيء فإن هذا مما لم يقل به بشر قبل أربعة عشر قرناً عهد نزول القرآن. فإذا نظرنا إلى الكهرباء التي اكتشفت بعد مجيء القرآن بقرون كثيرة رأيناها تحتوي على سالب وموجب وباتحادهما يتولد التيار الكهربائي.

ولننتقل إلى الذرَّة أصغر جزء في عنصر ما فقد اكتشف العلماء بأنها تحوي قلباً صغيراً يسمى (النواة الذرية) يحيط بها عدد من الجسيمات الخفيفة جداً تسمى (الالكترونات) وهذه تحمل شحنة كهربائية سالبة، أما النوى فتحمل شحنة كهربائية موجبة.

وهناك أبعد من هذا فقد استنتج رجال الطبيعة من تجارب أجروها في معاملهم: أن النواة الذرية نفسها مؤلفة من أجزاء أصغر، فوجدوا وحدتين أساسيتين من وحدات البناء في نواة الذرة: إحداهما نواة ذرة الهيدروجين وقد أطلق عليها رجال الطبيعة اسماً خاصاً هو «البروتون» يقابله وحدة البناء الثانية التي اكتشفها في عام ١٩٣٢ العالم الانجليزي السير جيمس تشادويك وتسمى: «النيوترون».

سعة الكون وتمدده:

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

الإعجاز العلمي في هذه الآية هو قوله تعالى عن السماء ﴿وإنا لموسعون﴾ يمكن أن نفهم من معنى (لموسعون) إستناداً إلى اللغة معنيين: المعنى الأول اننا موسعوها منذ البداية أي عند خلقها. والمعنى الثاني: اننا موسعوها بعد خلقها أي نجعلها تتسع.

فمن ناحية المعنى الأول نرى اينشتين يتخيل سعة هذا الكون بأنه يتسع لبلايين من السدم[1]وكل سديم منها يحتوي على مئات الملايين من النجوم الملتهبة [2].

ومن ناحية المعنى الثاني فهذا تؤيده نظرية تمدد الكون التي ينادي بها علماء الفلك حديثاً. فقد لاحظ علماء الفلك في أقصى ما يدركه المنظار علامات تدل على حركات السدم الخارجية، حركات نظامية، واستدلوا منها على أن جميع السدم الخارجية أو «الجزر الكونية» تبدو على أنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسية، بل أنها تتباعد عن بعضها البعض، وعلى هذا الأساس فإن الكون ليس ساكناً إنما يتمدد كما تتمدد فقاعة الصابون أو كما يتمدد البالون، ولكن الأجسام المادية فيه تحافظ على أحجامها.

وقد تقدم عدد من العلماء الكونيين بنظريات تشرح لغز الكون المتمدد منهم الدكتور هابل Habble رائد الباحثين في السدم، فقد لاحظ أن هناك نزعة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الشاسعة البعد وهي: أنها أميل إلى الإدبار عنا منها إلى الإقبال، كما لاحظ أن سرعة الإدبار تزيد بازدياد أبعاد هذه الجزر الكونية.

---

(١) السدائم: جمع سديم وهي السحابة، وتطلق في الاصطلاح الفلكي على مجموعة هائلة من النجوم.

(٢) عن كتاب (العالم واينشتين).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ

شرح المفردات

والطُّور: الواو للقسم، الطور: جبل في سيناء كلَّم الله عنده نبيه موسى.
كتَابٍ مَسْطُور: مكتوب على وجه الانتظام، قيل المراد به القرآن، أو الكتب السماوية.
رَقٍّ: ما يُكتب فيه جلداً كان أو صحيفة أو غير ذلك.
منشُورٍ: مبسوط غير مختوم، وفي متناول كل أحد.
البَيْت الْمَعْمُور: الكعبة المعمورة بالوافدين إليها من الحجاج.
السَّقْفِ الْمَرْفُوع: السماء المرفوعة بقدرة الله تعالى.
البحْرِ الْمَسْجور: البحر المملوء بالماء.
إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقعٌ: إنَّ عذاب ربك لنازل بالكافرين لا محالة.
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً: تتحرك حول نفسها وتضطرب اضطراباً شديداً.
خَوْضٍ: إندفاع في الأباطيل والأكاذيب.
يُدَعُّونَ: يُدفعون.

إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾
أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟
سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ
رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ
﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ

شرح المفردات

إِصْلَوْهَا: أُدخلوها وقاسوا حرّها.

فاكهين: ناعمين متلذذين.

بِمَا آتَاهُم رَبُّهُم: بما أعطاهم ربهم.

وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ: قرناهم بنساء بيض يمتزن باتساع العيون وجمالها.

مَا أَلَتْنَاهُم مِنْ عَمَلِهِم مِنْ شَيءٍ: ما نقصناهم من ثواب أعمالهم شيئاً.

كُلُّ امرئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ: كل إنسان مُرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره.

يَتَنَازَعُونَ: يتناولها بعضهم من البعض الآخر.

فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم

شرح المفردات

كَأْساً: الإناء بما فيه من الشراب، وتطلق الكأس على إناء الخمر.

لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ: لا كلام ساقط في أثناء شربها، ولا فعل يوجب الإثم.

لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ: مستور مصون في أصدافه.

مُشْفِقِينَ: خائفين من الله تعالى.

عَذَابَ السَّمُومِ: عذاب النار.

البَرُّ: المحسن العطوف.

الرَّحِيمُ: الذي كثرت رحمته.

فَذَكِّرْ: أي فَذَكِّر يا محمد بالقرآن قومك، وعظهم به.

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ: بإنعام الله عليك بالنبوة.

بِكَاهِنٍ: هو الذي يخبر بالغيب اعتماداً على الظن عند العرب في الجاهلية.

نَتَرَبَّصُ: ننتظر.

رَيْبَ الْمَنُونِ: حوادث الدهر المؤدية إلى الموت.

أَحْلاَمُهُم: عقولهم.

بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾

شرح المفردات

طاغُونَ: متجاوزون الحد في العناد والكفر.

تَقَوَّلَهُ: إختلق القرآن وافتراه من عند نفسه.

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ: فليأتوا بكلام مماثل للقرآن.

خَزَائِنُ رَبِّكَ: خزائن رزقه ورحمته.

الْمُصَيْطِرونَ: المسلّطون الجبّارون، أو الأرباب.

سُلَّمٌ: مرقى إلى السماء يصعدون به (درج).

بسُلْطَانٍ مُبِينٍ: بحجة واضحة.

مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ: منْ غرامة مالية تُثقل كاهلهم.

يُرِيدُون كَيْداً: يريدون المكر وتدبير السوء لك ليهلكوك.

الْمَكِيدُونَ: المجزيّون بكيدهم ومكرهم.

أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا
كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ
حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ
ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

شرح المفردات

كسفاً: قطعاً.
سَحَابٌ مَرْكُومٌ: سحاب بعضه فوق بعض.
يُصعَقُونَ: يموتون.
لا يُغْنِي عَنْهُمْ: لا يدفع عنهم.
فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا: في حفظنا وحراستنا.
سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ: نَزِّه ربك حامداً له.
إِدْبَارَ النُّجُوم: وقت مغيبها بضوء الصباح.

سُورَةُ الطُّورِ

ايضـــاح و دروس

هذه السورة في مجملها بيان لحال المؤمنين في الآخرة وما هم عليه من نعيم، وبيان لحال الكافرين يومئذ وما هم عليه من عذاب.

وهذه السورة تشتمل على تحدٍّ للمنكرين لرسالة النبي ﷺ بأن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين في دعواهم بأن القرآن ليس وحياً من عند الله.

كما أن هذه السورة تُسفّه كثيراً من آراء الكافرين الفاسدة، ومزاعمهم الباطلة، وتقدم دليلاً منطقياً على وجود الله يخرس الألسنة، ويبهر العقول.

إستهل الله هذه السورة بالقسم بخمسة أمور فيها دلالة على عظيم قدرته، وبديع صنعه، لتأكيد وقوع العذاب بالكافرين يوم البعث والجزاء.

ووقوع القسَم في مستهل السورة له أثره النفسي في إثارة الانتباه والتأثير على المستمع. يقول تعالى:

﴿وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ . وَالبَيْتِ الْمَعْمُورِ . وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ . وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾.

﴿وَالطُّورِ﴾ الواو للقسم. الطور: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وآتاه التوراة، ويسمى طور سيناء، وموقعه في مصر بين خليج السويس وخليج العقبة. والله يقسم بالطور تعظيماً له وبياناً لأهميته، وإشعاراً بأن الإسلام ليس ديناً جديداً، بل هو دين متمم للأديان السماوية السابقة، ومصحح لما طرأ عليها من تحريف وتبديل.

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ أي وكتاب مكتوب على وجه الإنتظام بسطور مصفوفة، وقد اختلف في المراد بالكتاب المسطور، فقيل إنه القرآن، وقيل

إنه الكتب السماوية، وقيل إنه كتاب اعمال الإنسان يعطاه الإنسان بيمينه يوم القيامة أو بشماله حسب ما يُقدّم فيه المرء من حسنات أو سيئات.

﴿في رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ الرق هو الجلد الرقيق المبسوط الذي يكتب فيه، وقد كان الرق قديماً يستعمل للكتابة قبل أن يكتشف الورق الذي يستعمله العالم في أيامنا هذه، ﴿منشور﴾ أي مبسوط غير مختوم، أو بمعنى المنتشر، والمراد أنه في متناول كل أحد يُريد قراءته.

﴿وَالبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ هو الكعبة المشرَّفة، وهذا البيت يعمره الله بالوافدين إليه من الحجَّاج ليلاً نهاراً في كافة أيام السنة. وقيل إن المراد بالبيت المعمور بيت في السماء حيال الكعبة «أي بمحاذاتها» يدخله كل يوم سبعون ألف ملك من الملائكة يطوفون به كما يطوف الحجيج بالكعبة ثم يخرجون فلا يعودون إليه، وفي هذا إشارة إلى كثرة ملائكة الله الذين يُسبِّحُون بحمد ربهم.

﴿والسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ هو السماء باعتبارها سقفاً للأرض، والقسم بها فيه لفت للنظر إلى عظمة مبدعها، وقدرته المسيطرة على هذا الكون، وقد جاء في القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ الأنبياء: ٣٢.

﴿وَالبَحْرِ المَسْجُورِ﴾ هو البحر المملوء بالمياه، والبحر هو مصدر الماء العذب الذي ينزل من السحاب بعد تبخره منه، وبه حياة الكائنات النباتية والحيوانية جميعها، وبدون الماء لا حياة على الأرض، فالقسَم بالبحر فيه لفت للأنظار إلى قدرة الله العظيمة وتذكير بفضله على الكائنات الحية. ويأتي المسجور بمعنى المضرم بالنار ويكون ذلك يوم القيامة.

هذه الأمور المقسم بها يراد منها بيان قدرة الله تعالى، وإثارة الخشوع له وتنبيه الأسماع إلى الأمر الهام المقسم به وهو قوله تعالى: ﴿إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أي أن عذاب الله كائن لا محالة في الآخرة ولا مهرب منه، وهو واقع على من يستحقه، لا دافع يدفعه عنه إذا وقع ولا مردّ له.

ثم يتابع القرآن فيذكر بعض مظاهر القيامة، وما يحدث من تغييرات في

الكون إعلاناً بانتهاء الحياة الدنيا، وانتقالاً إلى عالم آخر مع بيان المصير السيِّء الذي ينتظر الكفار المكذبين بالإسلام:

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً . وَتَسِيرُ الجِبالُ سَيْراً . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبِينَ. الّذِينَ هُمْ في خَوْضٍ يَلْعَبُونَ . يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ . إصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾.

فالسماء تمور موراً أي تتحرك وتدور دوراناً حول نفسها، ويموج بعضها في بعض ﴿ وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً ﴾ أي تقتلع وتنتقل من أماكنها ثم تقع على الأرض مفتتة[1] ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي الويل والهلاك يومذاك للمكذبين بالبعث ﴿ الَّذِينَ هُمْ في خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي الذين كانوا يخوضون في الكلام عن محمد بالتكذيب والاستهزاء وهم في باطلهم يلهون ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أي يوم القيامة يُدفع المكذّبون إلى نار جهنم دفعاً شديداً، فإذا دنوا منها قال لهم الملائكة الموكّلون بعذاب الكفرة: ﴿ هَذِهِ النَّارُ التي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ثم يُقال لهم زيادة في التوبيخ: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُم لا تُبْصِرُونَ ﴾ أي أهذا الذي ترونه من النار سحر خادع كما كنتم تسمون القرآن أم أنتم اليوم عُمي كما كنتم عمياً عن رؤية الصواب في الدنيا، ﴿ إصْلَوْهَا ﴾ أي ادخلوا النار وقاسوا حرّها ﴿ فَاصْبِرُوا أو لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فصبركم على عذابها أو عدم صبركم سيَّان عليكم في عدم النفع ﴿ إنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ إنكم ستُعاقبون بسبب ما عملتم في دنياكم من السيئات.

وبعد أن بيَّن القرآن حال الكافرين ومصيرهم السيِّء يوم القيامة، أردف ذلك بذكر حال المؤمنين ونعيمهم في الآخرة:

﴿ إنَّ الْمُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ . فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ

---

(١) جاء في القرآن عن مصير الجبال يوم القيامة: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُل يِنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾.

عَذَابَ الْجَحِيمِ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ . مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾.

فالمتقون الذين آمنوا بالله وبما جاء من عند الله على لسان رسوله وامتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه هم ﴿في جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي في بساتين، ونعيم بما يتمتعون به من مأكل ومشرب وملبس. ﴿فَاكِهِينَ﴾ أي عندهم فاكهة كثيرة، أو بمعنى: مسرورين مغتبطين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بما أعطاهم ربهم من صنوف النعيم والفاكهة ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وكأن هذه الآية تشير إلى أن نجاتهم من عذاب الجحيم هذه وحدها نعمة كبرى ومبعث لاغتباط عظيم، ثم يُقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي كلوا واشربوا هنيئاً بدون تنغيص ولا كدر إنه ثواب ما كنتم تعملون في الدنيا. وزيادة في نعيمهم ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ فهم جالسون جلسة مريحة على مقاعد وثيرة مصفوفة موصولة بعضها ببعض ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرناهم بحور عين، وحور: جمع حوراء وتطلق على المرأة البيضاء، وعلى المرأة الشديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة، وعِين: جمع عيناء وهي ذات العين الواسعة في حسن وجمال.

ثم يذكر القرآن الكريم ما خصَّ الله به المؤمنين في الآخرة من نعيم، وهو جمعهم مع ذريتهم على صعيد واحد في الجنة لتقرّ أعينهم وذلك شرط أن يشاركوهم في الإيمان:

﴿والَّذِينَ آمنوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِنْ عَمَلِهِم مِنْ شيءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

أي والذين آمنوا واستحقوا درجات عالية في الجنة بسبب أعمالهم الصالحة، وشاركتهم ذريتهم في الإيمان، ولكنهم كانوا دونهم في العمل الصالح، ولم يبلغوا درجات الآباء في الثواب، ألحقهم الله بآبائهم لتقرّ أعين الآباء بهم ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾ أي وما أنقص الله الآباء شيئاً من ثواب أعمالهم، ولا يحمل الآباء

شيئاً من أخطاء ذريتهم ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي كل إنسان مرهون عند الله بكسبه وعمله، لا يُحمل عليه ذنب غيره، فإن كان عمله صالحاً فك نفسه وخلّصها كما يَخلّص المرهون من يد مُرتهنه. وإلاّ أهلكها.

ويتابع القرآن فيذكر ما خص الله به المؤمنين من نعيم أيضاً:

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . يَتَنَازَعُون فِيهَا كَأْساً لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ . وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ . قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ . فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ . إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّه هُوَ البَرُّ الرَّحيمُ ﴾.

وأعطى الله المؤمنين زيادة على ما سلف فاكهة ولحماً من الأصناف التي تشتهيه نفوسهم وهم ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً ﴾ أي يتعاطون كؤوس الشراب ويتداولونها فيما بينهم، والكأس هو الإناء المملوء بالخمر، وهذه الكؤوس ﴿ لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ أي لا يصاحب شُربها قول باطل ولا فعل آثم يشين صاحبه، وقد أعطى الله هذا الوصف للخمر في الآخرة احترازاً عن مواصفاتها في الدنيا حيث هي من فعل الشيطان وتفضي بشاربها إلى قوْل اللغو وفِعْلِ الإِثم. ويطوف على المؤمنين بالكؤوس والفواكه واللحوم ﴿ غِلْمَانٌ لَهُم كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ أي خدم في مقتبل العمر صِباح الوجوه، وهم في حسنهم كاللؤلؤ المخبوء في أصدافه من حيث البياض والصفاء. ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي توجّه بعض المؤمنين على بعضهم بالسؤال عن سبب هذا النعيم الذي أغدقه الله عليهم، ويأتي جواب المؤمنين: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا ﴾ أي كنا في الحياة الدنيا بين أهلينا ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين من عذاب الله ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ فتفضّل الله علينا بعطائه هذا ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ أي صرف عنا عذاب النار ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي كنا في الدنيا نوحّده ونخلص له العبادة والدعاء ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ إنه العطوف على عباده، المحسن إليهم، العظيم الرحمة.

وبعد أن بيَّن الله مصير الكافرين ومصير المؤمنين في الآخرة، أمر الله النبي ﷺ بالثبات على دعوته، وأن لا يكترث للتهم الباطلة التي يرميه بها قومه.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ . أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾.

فالله يأمر نبيه بالمداومة على التذكير والوعظ لأنه سبحانه بما أنعم عليه من النبوة ورجاحة العقل ليس بكاهن ولا مجنون، بل رسول من رب العالمين.

فالكاهن هو رجل الدين عند العبرانيين، أما الكاهن عند العرب قبل الإسلام فله مواصفات خاصة فهو المتنبىء بالغيب المتحدّث للناس بما قد يحدث لهم في المستقبل بما يزعم من اتصال له بالآلهة والأرواح، وهو الطبيب الذي يصف الدواء.

والكهان لهم أسلوب خاص في الكلام يعرف بالإغراق في استعمال السجع، وبالإفراط في استعمال الكلام الغامض، وقد كان للكهان أثر كبير في حياة العرب قبل الإسلام فكان الناس يستشيرونهم في إبرام الأمور المهمة، وكان هؤلاء الكهان يتقاضون أجراً، لأن الجن والشياطين التي توحي إليهم بالأجوبة - في زعمهم - لا ترضى بالتنبؤ إلاّ إذا رأت أجر التنبؤ ويقال له: « حلوان الكاهن » عندهم[1].

فالكهان في جزيرة العرب لم يكونوا يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، ومكارم الأخلاق، ومحاربة الشرك والفساد، والامتناع عن الآثام كما كان يدعو النبي ﷺ، كما أن النبي لم يتقاضَ أي أجرٍ على دعوته كما كان يفعل الكهان. كل هذا ينفي نفياً قاطعاً تهمة الكهانة عن النبي ﷺ.

أما تهمة الجنون فهي تهمة تدل على إفلاس المشركين في محاربة النبي ﷺ

---

(١) باختصار عن كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي.

إذ وصفوه بصفة هي أبعد الصفات عنه، وهي نفس التهمة التي ألصقها بعض أعداء الإسلام بالنبي ﷺ حديثاً، فوصفوا الوحي بأنه حالة صرع كانت تصيبه. هؤلاء نقول لهم: إن مواضيع الهذيانات الهستيرية لا تخرج عادة إلاّ عن تصورات وهمية تتناسب مع الأعصاب المتعبة المريضة، كتخيل المريض رؤية روح شريرة تتوعده بالأذى أو تتقصده بالقتل أو تقلقه بالإستهزاء، ولم يُشاهد هذيان هستيري يشتمل على العلوم الإلهية، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسي والمدني وغيرها من الأصول التي أتى بها محمد ﷺ من عند الله بواسطة الوحي، والتي أسهب العلماء في شرحها وبيان مزاياها في ألوف المجلدات.

وبعد أن سقطت تهمة الكهانة والجنون تصوره البعض شاعراً بما أتى به من القرآن الكريم، هذه التهمة هي أضعف التهم، فما كان محمد شاعراً، ولم يقل بيتاً واحداً من الشعر طوال عمره، فللشعر موضوعات يطرقها الشعراء، وأوزان يتقيّدون بها. فالقرآن ليس شعراً، وهذا واضح فهو لم يُقيّد بقيود الشعر ولا بأوزانه، وليس نثراً عادياً لأنه مقيد بقيود خاصة لا توجد في غيره، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بعضاً بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة به.

«كما أن القرآن لم يشارك الشعر الذي ألفه العرب في قليل أو كثير من موضوعاته ومعانيه، فهو لا يصف الأطلال والربوع، ولا يصف الحنين إلى الأحبة، ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال والقصار... وليس فيه غزل ولا فخر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء... وإنما يتحدث إلى الناس عن أشياء لم يتحدث عنها أحد قبله، يتحدث عن التوحيد فيحمده ويدعو إليه، ويتحدث عن الشرك فيذمّه وينهى عنه، ويتحدث عن الله فيعظّمه ويصف قدرته التي لا حدّ لها... وإرادته التي لا تُرد، وخلقه للسماوات والأرض وما فيهن من يسير الأشياء وخطيرها، ومن صغير الأشياء وكبيرها. ويدعو الناس إلى عبادة الله والائتمار بما يأمر به، والانتهاء عما ينهى عنه، والتنزّه عما لا يليق بكرام الناس... وهو يبشر المؤمنين بما أعد لهم من نعيم وينذر الكافرين ما ادخر لهم

من جحيم[1]... » إلى آخر ما اشتمل عليه القرآن من موضوعات.

فهؤلاء المشركون كما يحكي القرآن عن لسانهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ والمعنى: بل أيقولون عن النبي هو شاعر ننتظر به نزول الموت. هنا يخاطب الله نبيه بقوله: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي انتظروا الموت لي فإني معكم منتظر هلاككم. وهذا الأسلوب فيه تهكُّم بهم مع التهديد والوعيد.

هنا تتجلى إحدى معجزات القرآن، فهذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن، وقد كان المناوئون للنبي أكثر عدداً، وأقوى شكيمة، فما هي إلا سنوات قلائل حتى هلك المناوئون للدعوة الإسلامية، وانتصر النبي ﷺ على كل من عاداه واضطهده وعمّ الإسلام كل جزيرة العرب.

أمام هذه المزاعم الباطلة يتساءل القرآن: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ لقد كان شيوخ قريش يُلقبون بذوي الأحلام « أي العقول » إشارة إلى رجاحة عقولهم، وحكمتهم في تصريف الأمور، فالقرآن يتهكم بهم وبعقولهم لأن موقفهم من النبي ﷺ ينافي الحكمة والعقل فلو كان عندهم حكمة وعقل لما اتهموا النبي بتلك التهم الباطلة؛ إنهم بموقفهم هذا من النبي ﷺ ﴿ قَوْمٌ طَاغُون ﴾ أي متجاوزون الحد في الكفر والعناد.

و لم يقتصر تطاول قريش على النبي ﷺ عند هذا الحد، بل اتهموه بالكذب حين ادعوا أنه اختلق القرآن وأنه ليس وحياً من عند الله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ والتقوّل لا يستعمل إلاّ في الكذب، فهم يقولون: إنه اختلق القرآن، بل هم لمكابرتهم لا يؤمنون، فعدم تحسسهم بالإيمان هو الذي يملي عليهم مثل هذا الافتراء، ولو تخلوا عن كبريائهم، وأمعنوا بالقرآن إمعان عقل وفكر لأدركوا أن القرآن ليس من تأليف بشر.

وهذه التهمة يرددها في العصر الحاضر كثير من أعداء الإسلام لتشويهه والتنفير منه، ولكن القرآن قَدَّم أعظم رد على هؤلاء جميعاً في الماضي،

---

(١) عن كتاب مرآة الإسلام للدكتور طه حسين.

والحاضر، والمستقبل، وهذا الرد هو في غاية البساطة هو تحدّيهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أي فليأتوا بكلام مماثل للقرآن في نظمه وبيانه وهديه ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في ادعائهم أن محمداً قد اختلق القرآن.

إن محمداً ﷺ لم يخرج عن كونه بشراً مِنْ عِداد قومه الذين اشتهر كثير منهم بالفصاحة والبيان، ولمع فيهم شعراء عديدون فطاحل، هذا وإن محمداً ﷺ لم يُشتهر في قومه قبل النبوة بالفصاحة والبيان، ولم يكن من عداد شعرائهم وبُلغائهم، فالأمر كما نرى في غاية السهولة عليهم فليؤلفوا إذن مثل هذا القرآن طالما أنه من تأليف محمد على حدّ زعمهم.

حار الكفار في أمرهم لا يدرون كيف يأتون بكتاب مثل القرآن، حاولوا أن يردوا على هذا التحدي فعجزوا، ولذا نرى القرآن يخاطبهم بما جاء في سورة الإسراء:

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ الآية: ٨٨.

ومضى القرآن خطوة أخرى عندما ظهر عجزهم، فلم يطالب بمثل مجمل القرآن ولكن طالب بالإتيان بمثل عشر[١] سُوَرٍ منه، وهذا ما جاء في سورة هود الآية ١٣:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ[٢] قُلْ: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾.

أمام هذا التحدي أيضاً لم يستطع أحد من المناوئين للنبي ﷺ الإتيان بمثل عشر سُوَرٍ من القرآن:

ثم مضى القرآن بعد ذلك خطوة ثالثة قاصمة، فتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة مثل سور القرآن، وهذا أقصى غايات التحدي:

---

(١) عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة.

(٢) افتراه: اختلقه من عنده.

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا[1] فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ[2] مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا - وَلَنْ تَفْعَلُوا - فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٢٣.

إن تسجيل القرآن لعجزهم بقوله: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ في الحاضر والمستقبل، وعدم استطاعة أحد من كتّاب العرب، وبلغائهم وشعرائهم مجاراة القرآن - قديماً وحديثاً - في بلاغته وهديه لهو برهان مفحم قاطع على كون القرآن وحياً إلهياً ليس بعده برهان.

هذا مع العلم أن بلغاء العرب كثيرون، ومنهم من كان لا يدين بالإسلام ويضمر العداوة له. فلو وجدوا في بلاغة القرآن منفذاً من ضعف لجاهروا بذلك، ولو استطاعوا مجاراة القرآن في بلاغته لفعلوا.

فالقرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم محمداً ﷺ آية وبرهاناً على صدقه فيما يبلِّغ عن ربه.

وبعد أن أثبت القرآن صدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن الذي جاء به هو وحي إلهي انتقل إلى الرد على الذين يُنكرون الخالق كما هو شأن الدهريين والملحدين:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَمَاواتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾.

هذا النص القرآني على إيجازه فيه كل ما توصّل إليه الفكر الحديث لإثبات وجود الله، فالعقل البشري في كل زمان ومكان يرتكز على قاعدة أساسية هي في حكم البديهيات وهي: إنه لا بد لكل مصنوع من صانع أو بالأحرى لا بد لكل مخلوق من خالق، وقديماً قال أرسطو لا بد لكل متحرك من محرك.

---

(١) عبدنا: أي محمد ﷺ.

(٢) شهداءكم: أعوانكم ونصراءكم.

فالقرآن يقول: هل خُلِقوا من غير خالق[1]؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم؟ ولو تصوّرنا على سبيل المكابرة أنهم خَلَقوا أنفسهم، فهل هم الذين خلقوا السماوات والأرض؟ وإذا كان هذان الفرضان يرفضها منطق العقل فإنه لا يبقى إلاّ الحقيقة التي يقولها القرآن: وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يُشاركه أحد في الخلق.

فالعالم العلوي وما فيه من نجوم وكواكب، والعالم الأرضي وما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد، والترابط الوثيق بين هذه العوالم ما هو إلاّ برهان قوي على وجود الله، لأن العقل لا يتصور أن توجد هذه الأشياء بدون موجد، كما لا يتصوّر أن توجد الصنعة بدون صانع، ولكن رغم هذه الأدلة فإن الملحدين ﴿لا يُوقِنُون﴾ أي لا يصدقون بوجود الله ووحدانيته.

ثم يتابع القرآن سلسلة التساؤلات التي بدأها مع الكفار والتي لا تُبقي لهم أدنى حجة في استمرارهم على الكفر.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُون . أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾.

أي أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يُعطوا النبوة مَن شاءوا ويمنعوها عمَّن شاءوا؟ أم هم الجبارون المتسلطون على الله حتى يدبّروا أمر الربوبية، ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم؟ كلا، ليس عندهم شيء من هذا، ولكنهم يكذّبون النبي ﷺ عناداً واستكباراً!! أم لهم سلّم يرتقون فيه إلى

---

(١) يقول الدكتور بول كليرانس أبرسولد: إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة، هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق، بل إن لهما بداية، ولا بد لكل بداية من مبدىء، كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية، كما أن وراءها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان، إنها بداية مقدسة، وتوجيه مقدس، وتدبير إلهي محكم ». (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم).

السماء يستمعون الوحي فيدعون أنهم سمعوا هنالك أن الذي هم عليه هو الحق؟ وإذا كان الأمر كذلك فليأت مستمعهم بحجة تبين أنه على حق. ثم سفَّه الله عقولهم حيث اعتبروا الأصنام إناثاً وأنهن بنات الله - تنزَّه الله عن الولد - هذا مع كرههم للبنات، فكيف ينسبون إلى الله ما يكرهونه لأنفسهم.

ويتابع القرآن سلسلة التساؤلات التي بدأها مع الكفار فيقول سبحانه:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُم أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ . أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾.

فالله سبحانه يقول لنبيه: أتطلب منهم أجراً على ما جئتهم به من شريعة الإسلام ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ فهم متعبون مثقلون عن دفع تلك الغرامة فلذلك يكرهون اتباعك، فإذا كنت يا محمد لا تطلب من قومك أجراً[1] ولا غرامة فلماذا يقفون منك هذا الموقف من العناد وعدم الإذعان لما جئت به من الهدى؟ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أم يدَّعون أن عندهم عِلْمَ الغيب حتى علموا أن ما تخبرهم به من أمْرِ القيامة والبعث هو باطل، فهم بذلك يكتبون ما اطّلعوا عليه ويخبرون به الناس. ﴿أم يُرِيدُونَ كَيْداً﴾ أم يريدون مكراً بك يا محمد للقضاء عليك ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي فالذين كفروا هم المجزيون بكيدهم.

وقفة قصيرة عند قوله تعالى: ﴿فالَّذِين كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هذا النص القرآني من الأنباء الغيبية التي تحقق وقوعها بعد فترة قصيرة من نزول الوحي بها في مكة مما يشهد أن القرآن وحي إلهي. فقد تآمر على قتل النبي ﷺ

---

(١) هنا درس يقدمه القرآن للدعاة بأن يمتنعوا عن أخذ الأجر جزاء لما يقومون به من دعوة إلى الله إذا كانوا في كفاية مادية.

وجهاء قريش في دار الندوة يوم هجرته إلى المدينة فنجى الله نبيه من القتل، وبعد ذلك وقعت غزوة بدر فقتل فيها أكثر المتآمرين على قتل النبي ﷺ، وتتابعت انتصارات النبي حتى دانت له كل جزيرة العرب، فلو كان القرآن من تأليف محمد لما حكم بهذا الحكم القاطع بهزيمة أعدائه في وقت كان يستعد فيه للهجرة إلى يثرب (أي المدينة المنورة) خوفاً من بطش كفار قريش، ولم يكن أتباعه آنذاك إلاّ قلة لا يُعتَدُّ بقوتهم.

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ ﴾ أم يَدَّعون أن لهم إلَهاً غير الله يرزقهم وينصرهم ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عمَّا يُشركون به من الأوثان والأصنام. ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً منَ السَّمَاءِ سَاقِطاً ﴾ كسفاً: جمع كسفة وهي القطعة من الشيء. ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ مركوم: أي بعضه فوق بعض. والمعنى المراد: أي لو عذّبهم الله بسقوط قطع من السماء تنزل عليهم لم ينتهوا عن كفرهم، بل يقولون: هو سحابٌ متراكم بعضه فوق بعض عناداً منهم أن يسلّموا بالحق، وهذا ردٌّ على كفار قريش الذين طلبوا من النبي ﷺ دليلاً على نبوته بقولهم بما ذكره القرآن: ﴿ أو تُسْقِطَ السَّماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ الإسراء: ٩٢. فأخبر الله تعالى رداً عليهم: أنهم لو رأوا ذلك عياناً حسب اقتراحهم لبلغ بهم العناد أن يُغالطوا أنفسهم فيما شاهدوه ويعاندوا ويقولوا سحاب متراكم.

وأخيراً بعد أن تبين موقف الكافرين المبني على المكابرة والعناد يدعو الله النبي ليهمل أمرهم ويعرض عنهم حتى يأتيهم عقاب الله مع الوعد له بالتأييد:

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الّذي فِيهِ يُصْعَقُون . يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ . وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ ﴾.

أي فدعهم يا محمد غير مكترث بكيدهم حتى يُلاقوا اليوم الذي فيه ﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ أي يهلكون وهو يوم القيامة حيث لا يدفع عنهم كيدهم ولا

مكرهم شيئاً من العذاب ولا هم يجدون ناصراً لهم، وإذا كانوا في دنياهم يلجأون إلى الكيد والمكر والخداع فإنهم في ذلك اليوم لا ينفعهم كيد ولا يأخذ بيدهم نصير. ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي أن لهؤلاء الكفار عذاباً قبل يوم القيامة تتركه الآية بلا تحديد، قد يكون عذاب الخزي في الدنيا كما حصل للكافرين يوم غزوة بدر وقد يكون عذاب القبر ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك.

وبعد أن بين القرآن المصير الأسود الذي ينتظر الكافرين يأتي الخطاب من الله للنبي ﷺ بالصبر، مع الوعد له بالتأييد والحفظ، وأن يظل قلبه موصولاً بربه في الليل والنهار:

﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك حِينَ تَقُومُ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم ﴾.

فاصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه إلى أن يصيبهم العذاب الذي حذرناهم منه ﴿ فَإِنَّك بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا وفي حفظنا ورعايتنا، تعبير خاص يبعث الإيناس في القلب، والاطمئنان في الضمير، والعزيمة في المسيرة. ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ هذا ما يجب أن يستشعره كل داعية إلى الله عندما يحيق به الأذى والمكروه من قومه، فيعلم أنه بمرأى من الله ورعايته وتأييده وكفى بذلك عزاء وتثبيتاً لقلب الداعي إلى الله، وهو عزاء عظيم تتضاءل أمامه كل الصعاب والأهوال والاضطهاد.

أمام هذا الوعد الإلهي بالحفظ يأتي ختام السورة داعياً إلى ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ليظل القلب موصولاً بالله، هادياً للدرب، مطمئناً للقلب ﴿ فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي نزِّه ربك عن كل ما لا يليق به متلبساً بحمد ربك على إنعامه عليك ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي من مجلسك أو من منامك، أو حين تقوم إلى الصلاة ﴿ وَمِنَ اللَّيْل فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُوم ﴾ أي وسبحه في ثنايا الليل وعند غروب النجوم وهو آخر الليل ووقت صلاة الفجر. وقيل:التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء، وإدبار النجوم صلاة الفجر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧

شرح المفردات

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى: قَسَمٌ بالنجم إذا غرب وسقط.
مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم: ما حاد محمد ﷺ عن طريق الحق والهدى.
مَا غَوَى: ما جَهل ولا اعتقد باطلاً قط.
وَمَا يَنْطِقُ: ما يلفظ من القرآن الكريم.
عَنِ الهَوَى: عن هوى نفسه ورأيه الشخصي.
إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى: إن ما ينطق به من القرآن الكريم ما هو إلاَّ وحيٌ من الله.
شَدِيدُ القُوَى: ملَك عظيم القوة، وهو جبريل.
ذو مِرَّةٍ: ذو رأي، وعقل بالغ، وقوة.
فاسْتَوَى: علا وارتفع وظهر على صورته الأصلية.
بالأُفُقِ الأَعْلَى: أفق السماء من جهة المشرق.
دَنَا: قَرُبَ.
فَتَدَلَّى: زاد في القُرْب، أو نزل.

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ

شرح المفردات

قَابَ قَوْسَيْنِ: مقدار قوسين أو ذراعين من النبي ﷺ.

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحاه إليه ربه من الوحي الإلهي.

مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى: ما أنكر قلب النبي ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل.

أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى ما يَرَى: أتكذبون يا معشر قريش محمداً فيما رآه وتجادلونه بالباطل.

نَزْلَةً أُخرَى: مرة أخرى.

سِدْرَةِ المُنتَهى: شجرة نبق عن يمين العرش تنتهي إليها علوم الخلائق.

جَنَّةُ المَأْوَى: الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء.

يَغْشَى السِّدْرَةَ: يغطيها ويسترها، والغاشي لها نور الله.

مَا زَاغَ البَصَرُ: ما مال بصر محمد يميناً ولا شمالاً.

وَمَا طَغَى: ما جاوز ما أُمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَى: رأى ليلة أُسْرِيَ به إلى السماء.

مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَى: بعضاً من مظاهر عظمة الله وقدرته.

اللاَّت والعُزَّى وَمَنَاةَ: أصنام من حجارة كان المشركون يعبدونها في الجاهلية.

وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

ضِيزَى: جائرة غير عادلة.

سُلْطَان: حُجة وبُرهان.

تَهْوَى الأَنْفُس: تميل إليه النفوس.

أم للإنسانِ مَا تَمَنَّى: ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه.

الأُولى: الحياة الدنيا.

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ: وكثير من الملائكة.

لا تُغْنِي: لا تنفع ولا تفيد.

لَيُسَمُّونَ المَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى: يزعمون أن الملائكة إناث وأنهن بنات الله.

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا: فاترك من ابتعد عن القرآن أو عن ذِكْرِ الله.

ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ

شرح المفردات

مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ: منتهى ما وصل إليه علمهم.

ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ: حاد عن دينه.

بالحُسْنَى: بالمثوبة الحسنة وهي الجنة.

يَجْتَنِبُونَ: يبتعدون ويهجرون.

كَبَائِرَ الإِثْمِ: كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين.

الفَوَاحِشَ: جمع فاحشة، وهي ما عَظُمَ قُبْحُه من الأفعال والأقوال.

اللَّمَمَ: صغائر الذنوب.

أَجِنَّة: جمع جنين وهو الطفل ما دام في بطن أمه.

فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ: فلا تمدحوها بحسن الأعمال.

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى: هو سبحانه أعلم بمن أخلص له العمل واتقى ما يُغضبه.

تَوَلَّى: أعرض عن الإيمان والحق.

أَعْطَى قَلِيلاً: أعطى قليلاً من المال.

أَكْدَى: قطع العطاء بُخلاً.

عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾
وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ
لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ
يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ
هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ
عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ

شرح المفردات

أم لَمْ يُنَبَّأْ: ألم يُخبر.
صُحُفِ مُوسَى: هي التوراة.
الذي وَفَّى: أتمَّ وأكمل ما أُمر به وبلّغ رسالات ربه.
ألاّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى: لا يؤاخذ أحد بذنب غيره.
مَا سَعَى: ما عمل.
وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى: أي يريه تعالى جزاءه يوم القيامة.
ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى: ثم يُجزي الإنسان على عمله الجزاء التام.
المُنْتَهَى: المصير في الآخرة.
نُطْفَةٍ: ماء الرجل وهو المنيّ.
تُمْنَى: تُصَبُّ في رحم المرأة.
النَّشْأَةَ الأُخْرَى: الإحياء بعد المات يوم القيامة.
أَقْنَى: أعطاه ما يقتنى ويدّخر من المال، أو أرضى بما أعطى.

هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾

شرح المفردات

الشِّعْرى: نجم معروف كان العرب يعبدونه في الجاهلية.
عَاداً الأُولى: قوم من العرب البائدة وكان نبيهم هوداً عليه السلام.
ثَمُودَ: قوم من العرب البائدة وكان نبيهم صالحاً عليه السلام.
فَمَا أَبْقَى: أي أهلكهم الله فلم يُبقِ منهم أحداً.
المؤْتَفِكَةَ: قرى قوم لوط التي ائتفكت بهم أي انقلبت وانخسفت.
أهْوَى: أسقطها إلى الأرض بعد رفعها.
فَغَشَّاهَا: غطّاها بأنواع من العذاب.
آلاءِ رَبِّكَ: نعَم الله تعالى ومنها دلائل قدرته.
تَتَمارَى: تشك وترتاب.
أزِفَتِ: اِقتربت.
الآزِفَةُ: من أسماء القيامة.
أنتُمْ سَامِدُونَ: لاهون غافلون.

سورة النجم

ايضاح و دروس

موضوع هذه السورة التأكيد على صدق نبوة محمد ﷺ، وأنه تلقّى الوحي الإلهي من ربه بواسطة الملك جبريل الذي رآه النبي ﷺ على صورته الأصلية، كما تبيّن هذه السورة تفاهة عقول الذين يعبدون الأصنام من العرب في الجاهلية، وفي بدء الدعوة الإسلامية، كما تتحدث هذه السورة عن وجود اليوم الآخر حيث تُجزى كل نفس بما كسبت. وأخيراً تعرض قدرة الله في الأنفس والكون، وفي إهلاك الأمم الظالمة.

تستهل هذه السورة بقوله تعالى:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾.

والنجم: الواو للقسم، والنجم هو جنس النجوم الموجودة في السماء. ومعنى هوى: غرب أو سقط، فغروب النجوم نراها في دنيانا، أما السقوط فإنه يحصل يوم القيامة، وقد بيّن القرآن مصير النجوم يوم القيامة: ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرت ﴾ التكوير: ٢. أي تساقطت وتهاوت.

والحكمة من القسم بالنجم ما يرمز إليه هذا القسم من الدعوة إلى التأمل بالنجوم توصلاً إلى عظمة الخالق، ولما كان من المشركين من يعبدها، قرن بها وصفاً يدل على أنها لا تستحق العبادة لأنها غاربة يومياً، وساقطة يوم القيامة.

وجواب القسم هو قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ أي الأمر الذي أراد الله أن يؤكده في أذهان السامعين من قريش وسواهم هو أن محمداً ﷺ ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ أي ما انحرف ولا حاد عن طريق الحق الذي اشتهر به بينهم. ولقد كان محمد ﷺ قبل النبوة مشهوراً بالصدق والأمانة حتى أطلقوا عليه اسم « الأمين » فلم تُعرف عنه جريمة، ولا خصلة ذميمة، ومن كانت حياته الأولى كلها طُهراً فكيف ينقلب بعد سن الأربعين إلى ضدها، وهي السن التي

جاءه فيها الوحي الإلهي.

ولفظ ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ المراد به محمد ﷺ، والتعبير بالمصاحبة دون التلفظ باسمه للإعلام بأنهم واقفون على تفاصيل حياته، عالمون ببراءته من الضلال والغيّ، فإن طول صحبتهم له، ومشاهدتهم لمحاسن أخلاقه يستدعي عدم تكذيبه.

﴿ وَمَا غَوَى ﴾ أي ما اعتقد باطلاً، لأن الغيَّ هو الجهل مع اعتقاد فاسد، وهو خلاف الرشد، بينما الضلال هو في مقابلة الهدى.

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ﴾ أي أن القرآن الذي يتلوه ليس من هوى نفسه أو رأيه الشخصي ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وإنما هو من عند الله وحي يُوحى، والوحي هو ما يُبَلّغه الله إلى أنبيائه من الشرائع بواسطة الملك جبريل.

ويتابع القرآن فيبيّن بعض صفات المَلَك جبريل الذي علَّم محمداً القرآن:

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾.

فمحمد علَّمَهُ الوحيَ مَلَكٌ شديد القوى، هو جبريل عليه السلام، وكان رسولاً بينه وبين الله عَزَّ وجل. وجبريل هو ﴿ ذو مِرَّةٍ ﴾ أي صاحب رأي وعقل وقوة ﴿ فاسْتَوَى ﴾ أي علا وارتفع وتجلّى بصورته الأصلية ﴿ وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى ﴾ أي بالجهة العليا من السماء جهة أُفق مشرق الشمس.

فلقد كان جبريل يتمثل للنبي ﷺ إذا جاءه بالوحي في صورة رجل، وأحَبَّ النبي مرة أن يراه على حقيقته فتجلى جبريل بصورته الأصلية فعلا في أفق المشرق فملأه.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ دنا: أي اقترب من النبي ﷺ. وَتَدَلَّى: نزل وزاد في القرب منه. والذي دنا هو جبريل الذي نزل إلى النبي بعد استوائه بالأفق الأعلى.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ والقاب هو المقدار، والقوس هو سلاح كان يُستعمل في القديم، وربما سمى العرب الذراع قوساً، أي اقترب جبريل من النبي ﷺ مسافة تُقدَّر بقوسين أو ذراعين.

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أمره الله به من الوحي الإلهي.

﴿ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ أي ما أنكر قلب محمد ﷺ ما رآه بصره من صورة جبريل عليه السلام، بل صدَّق قلبه ما رآه ببصره.

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ أتجادلونه وتنكرون عليه ما رآه من صورة جبريل.

ويشير القرآن إلى رؤية محمد لجبريل أيضاً ليلة أُسْرِيَ به إلى السماء:

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى ﴾.

لقد رأى محمد جبريل مرة أخرى على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، وكان ذلك ليلة الإسراء حين صعد إلى السماء، فقد رأى جبريل عند ﴿ سِدْرَةِ المُنْتَهى ﴾ والسدرة هي شجرة النبق، والنبق شجر صحراوي ظليل، أما تسمية السدرة بالمنتهى، فقيل إنما سُمّيت بذلك لأن إليها تنتهي الملائكة ولا تتعداها، ولا يعلم ما وراءها إلاّ الله، وقيل: ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، والله أعلم بالمراد.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى﴾ أي عند هذه الشجرة: الجنة التي يأوي اليها المتقون يوم القيامة.

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ يغشى: يُغطي ويستر، والغاشي لها نور الله سبحانه، وقيل: تغشاها الملائكة.

﴿ مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ أي ما مال بصر محمد ﷺ يميناً ولا شمالاً عما أُمِرَ برؤيته، وما جاوزه إلى ما لم يُؤمر برؤيته.

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرى ﴾ لقد رأى محمد ﷺ ليلة أُسري به إلى السماء الآيات الكبرى، والدلائل العظمى على قدرة الله، فما رآه: الجنة والنار، ورأى جبريل في صورته الأصلية التي يكون عليها في السماوات حيث جعل الله له ستمائة جناح.

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن تفاهة عقول الكافرين الذين عبدوا الأصنام:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾.

فكفار قريش لم ينكروا وجود الله، وأنه خالق كل شيء، وإنما كانوا يشركون بالله، ويعزون إلى أصنامهم: اللات[١]، والعُزَّى[٢]، ومناة[٣] أنها تتصرف مع الله في أمور العباد، فإذا تقرّب الإنسان من هذه الأصنام شفعت لهم عند الله. وينقل القرآن على لسانهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهم إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى ﴾. الزمر: ٣.

---

(١) اللات: من الأصنام التي كانت لها شهرة واسعة بين العرب الشماليين، وبين العرب الساكنين في الحجاز، وكانت لها معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من هذه الأنحاء، وعند ظهور الإسلام كان معبدها الشهير في مدينة الطائف مركز قبيلة ثقيف يقصده الناس للتبرك به. وذكر ابن الكلبي أنها كانت صخرة مربعة بيضاء بنت ثقيف عليها بيتاً كانوا يسيرون إليه يضاهون به الكعبة.

(٢) العُزَّى: من الأصنام التي وضعت بواد من نخلة الشامية يُقال له حراض، وكانت قريش تتعبد للعزى وتزورها وتهدي إليها، وتتقرب إليها بالذبائح، وذكر ابن الكلبي أنها كانت من أعظم الأصنام عند قريش.

(٣) مناة: وهي من أقدم الأصنام في نظر الإخباريين وكان موضعها على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة، وكانت مُعظمة عند الأوس والخزرج وعند جميع العرب، وكان المتعبدون لها يقصدونها فيذبحون حولها ويهدون إليها. وكان سدنتها يجنون من سدانتهم لها أرباحاً حسنة.

وكان الكفار يعتبرون هذه الأصنام إناثاً وأنها بنات الله، ولقد استنكر الله دعواهم فقال: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ﴾ قال لهم ذلك حيث كانوا يحبون الذكور ويكرهون ولادة البنات لهم، كما قال سبحانه: ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ أي قسمتكم هذه قسمة جائرة عوجاء، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم، وآثرتم أنفسكم بما ترضون، والله سبحانه يتنزه عن الولد، سواء أكان ذكراً أم أنثى، وتجدر الإشارة إلى أن كلمة ضيزى فيها غرابة اللفظ لتتناسب مع غرابة القسمة التي ادعوها.

ثم يبين القرآن أن هذه الأصنام من صُنع أيديهم، ومن تسمياتهم، لا حجة فيها ولا دليل يثبت ألوهيتها، فكيف إذن يتوجهون إليها بالعبادة:

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وَآباؤكم مَا أَنْزَلَ الله بهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُس وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى ﴾.

أي ما الأصنام إلاَّ أسماء محضة ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها، لأنها لا تُبصر، ولا تسمع، ولا تعقل، ولا تضر ولا تنفع، فليست إلاَّ مُجَرَّد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، قلّد فيها الأبناء الآباء ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان تثبت أنها آلهة ﴿ إن يَتَّبِعُون إلاَّ الظنَّ ﴾ أي لا يتبعون إلاّ الظن والوهم في عبادتهم للأصنام، والظن تصوّر لا يستند إلى دليل، وهو يؤدي بصاحبه إلى وهم باطل، لا يفيد ما يفيده الحق، وما يفيده العلم اليقيني الذي عليه مدار الإيمان الصحيح ﴿ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُس ﴾ أي تميل إليه وتشتهيه أنفُسهم من غير التفات إلى الحق ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنْ رَبِّهمُ الهُدَى ﴾ أي جاءهم البيان الواضح الظاهر بأنها ليست آلهة.

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى إنكار وبطلان ما يتمناه الكفار من شفاعة الأصنام:

﴿ أَمْ للإِنْسانِ مَا تَمَنَّى . فَلِلَّهِ الآخِرَةُ والأُولى . وَكَمْ مِنْ ملَكٍ في

السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفاعتُهُمْ شَيْئاً إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾.

أي بل ليس لهؤلاء الكفار ما يتمنونه من شفاعة تلك الأصنام أو غير ذلك مما تشتهيه أنفسهم، فلله- وحده- التصرف في أمر الحياة الآخرة والحياة الأولى التي هي الحياة الدنيا.

ثم أعلمنا الله سبحانه أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله لا تشفع إلاّ لمن أَذِنَ الله أن تشفع له ﴿ وَيَرْضَى ﴾ أي يراه سبحانه أهلاً للشفاعة.

فإذا كان الملائكة مع علو شأنهم لا يشفعون إلاّ بعد إذنه سبحانه ومن يأذن الله له غير معروف من الخلق، فكيف يسوّغ لنا نحن البشر أن نحكم على أناس بأنهم شفعاء لنا عند الله كما فعل بعض أتباع الأديان الأخرى إذ أطلقوا على أناس اشتهروا بالورع اسم قديسين، واعتقدوا بأنهم يشفعون لهم، وهذه التسمية هي من مسمياتهم، لم يَرِد فيها حجة ولا برهان، وَلاَ وَحْيٌ من الله بأنهم قديسون وأنهم شفعاء لهم عند الله. وكذلك ما يفعله بعض عامة المسلمين في بعض البلدان الإسلامية، الذين أطلقوا على أشخاص اشتهروا بالتقوى والورع أسم أولياء، وشادوا لهم الأضرحة بعد مماتهم، وتقربوا منهم بالنذور، واعتقدوا بأن لهم القدرة على شفاء المرضى، وتيسير الحاجات، وأنهم شفعاء لهم عند الله، فهذه كلها مما ينكره القرآن الكريم.

فنحن لا ننفي الولاية التي أثبتها القرآن لبعض عباده الصالحين بقوله:

﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاء الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون . الَّذِين آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون . لَهُمُ البُشْرى فِي الحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرة....﴾ يونس: ٦٢ - ٦٣

فالله سبحانه لم يُثْبِتْ للأولياء القدرة على التصرف في مقدَّرات الكون والأرزاق، والشفاء للمرضى، والشفاعة للناس في الآخرة.

كما أنه ليس من حقنا أن نطلق على من نراه مُقبلاً مِنَّا على عبادة الله اسم وليّ لأن الله سبحانه يقول في هذه السورة أيضاً: ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾.

وبعد تقرير هذه الحقيقة التي تصحح المفاهيم الخاطئة حول الشفاعة يعود القرآن للكلام عن مشركي العرب:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّون المَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة أي بالبعث يوم القيامة - وهم مشركو العرب - ﴿ لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى ﴾ أي يعتقدون أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فالمشركون حين يقولون هذا القول السخيف لم يقولوه نتيجة لعلم، وإنما اعتماداً على الظن. وهم ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاّ الظَّنَّ ﴾ فالعقيدة لا تُبنى على الظنون والأوهام، إنما على العلم القائم على البرهان والدليل الذي هو في نظر القرآن حق، وما عداه هو الباطل ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شيئاً ﴾ أي أن الظن لا يقوم مقام العلم الثابت، فالحق الذي هو حقيقة الشيء إنما يُدْرَكُ بالعلم وباليقين، ولا يُدرك بالظن والوهم.

وبعد هذا التحذير من الظنون والأوهام في مجال العقيدة يوجِّهُ القرآن الخطاب للنبي ﷺ ولكل مؤمن بالابتعاد عن الذين يُعرضون عن ذكر ربهم:

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ إلاَّ الحيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾.

أي دع يا محمد من أعرض عن ذكر الله و لم يؤمن بربه، أو من أعرض عن القرآن ولم يأخذ بما فيه من الهدى، واترك مجادلته فقد بلَّغت ما أُمرت به. وهو في إعراضه ﴿ لَمْ يُرِدْ إلاّ الحيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ وملذاتها وشهواتها، وليس له غاية أخرى وراءها.

هذا الخطاب موجه أيضاً إلى كل مسلم يواجه في الحياة أناساً يعرضون عن ذكر الله، ويعرضون عن الإيمان به، ويعرضون عن هدى القرآن، ويجعلون

وجهتهم وغايتهم الحياة الدنيا وملذاتها، لا ينظرون إلى شيء وراءها، ولا يؤمنون بالآخرة، ولا يعملون لأجلها العمل الصالح، وأقرب من تتمثَّل فيهم هذه الصفات هم أصحاب المذاهب المادية الذين ينكرون الأديان.

والمؤمن مطالب بالثبات على إيمانه، والمحافظة على أداء شعائر الله، وليس هناك من ضرر يصيبه أكثر من مصاحبة هؤلاء الماديين الذين يمكن أن تتسرب عقائدهم وسلوكهم لا شعورياً إلى قلبه من جراء مصاحبتهم.

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلمِ﴾ هذا وصف لكل من جحد الآخرة، وحصر همه في هذه الدنيا، فهؤلاء علمهم تافه، لأن إدراك حقيقة الكون كفيل بالإيمان بالخالق وشكره وعبادته.

﴿ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ فهو سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ بواسطة الوحي ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ وهو سبحانه أعلم بمن اهتدى، فاقتنع بالحق وعمل به، وهو سبحانه يجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم يبيّن القرآن مجازاة الله للمسيئين والمحسنين في الآخرة:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الذين أسَاءوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الذين أحْسَنُوا بالحُسْنَى ﴾.

هذه الآية تعليل لما قبلها، فالله عالم بمن ضَلَّ وبمن اهتدى، لأنه سبحانه مالك لما في السماوات وما في الأرض، والمالك لا بد أن يحيط علماً بما يملك وما هو تحت سيطرته، وهو سبحانه يعاقب الضالين جزاء ما عملوا من ضلال، ويجزي الذين اهتدوا بالمثوبة الحسنة التي هي الجنَّة.

وهؤلاء الذين أحسنوا بَيَّن الله صفاتهم بقوله:

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُون كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إلاَّ اللَّمَم إنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُم أَجِنَّةٌ فِي بُطُون أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أنفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾.

في هذه الآية وَعْدٌ من الله بالجنة للذين يهجرون ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ والإثم: هو الذنب، والفواحش: جمع فاحشة، وهي ما عَظُمَ قُبحه من الأقوال والأفعال، وتطلق الفاحشة على الزنا خاصةً. وكبائر الإثم والفواحش قيل في تعريفها وتحديدها أقوال شتى، نجمعها ونلخصها فيما يلي:

كل ما نهى الله عنه في القرآن، أو ما نصَّ الله سبحانه على تحريمه، أو ما وجب فيه عقوبة كالسرقة والقتل والزنا وغير ذلك، أو ما ورد فيه توعّد بالعذاب بالنار يوم القيامة، أو الغضب من الله، أو ما وجب فيه لعنة، أو ورد فيه وعيدٌ شديد، أو وُصِفَ فاعله بالفسق.

وقد عدد النبي ﷺ بعض هذه الكبائر بقوله:

« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثَلاثاً، قلنا بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وَقَوْل الزُّور، وشهادة الزُّور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت »[١].

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ:

« اجتنبوا السبع الموبقات[٢]، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسِحْر، وقَتْل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولي[٣] يوم الزحف[٤]، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[٥].

ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير من هذه الكبائر[٦].

أما معنى: « اللَّمَم » فهي الصغائر من الذنوب، وأصل اللَّمم في اللغة ما قل أو صغُر، ويأتي اللمم بمعنى مقاربة المعصية دون ارتكاب لها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) الموبقات: المهلكات.
(٣) التولي: الإعراض والفرار.
(٤) يوم الزحف: أي زحف جيوش الأعداء.
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) للمؤلف كتاب في هذا الموضوع اسمه (الخطايا في نظر الإسلام).

فالمراد باللَّمم أن يلّم بالذنب الصغير مرة ثم يتوب فلا يعود، وقيل: إنه صغار الذنوب كالنظرة والقُبلة، وما كان دون الزنا، ويؤيد هذا حديث رسول الله: «إن الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فَزِنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنّى وتشتهي والفَرْج يُصَدِّق ذلك أو يُكَذِّبه»[1].

ويرجح الطبري هذا التعريف للمم بأنها: ما دون الكبائر، ودون الفواحش الموجبة للحدود[2] في الدنيا، والعذاب في الآخرة فإن ذلك معفو عنه.

ثم يقول سبحانه بعد أن ذكر كبائر الإثم: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فهذا النص القرآني بما له من أبعاد يفتح على العاصين أبوابَ المغفرة إذا ما رجعوا إلى الله، وتابوا من ذنوبهم، ولو كانت من الكبائر، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ والّذِينَ إِذَا فَعَلوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فاسْتَغْفَروا لِذُنُوبِهِم وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِم.... ﴾ ١٣٥، ١٣٦. فالله ضمن للمذنبين المغفرة في حال عدم إصرارهم على الذنب واستغفارهم لما فعلوه من الإثم.

ولنعد إلى بقية الآية السابقة فيقول سبحانه: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُم إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ أي إن ربكم أعلم بكم في وقت إنشائكم من الأرض، وإنشاء الإنسان من الأرض قد يُراد به أن أباهم آدم خُلِقَ من طين الأرض وهم من نسله، وقد يُراد به أن الذي يتكوّن منه الإنسان ناشىء من التغذية التي مصدرها الأرض. ﴿ وَإِذْ أَنْتُم أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُم ﴾ أي أنه سبحانه يعلم بكم حال كونكم أجنّة قبل الولادة، وأَجِنَّة جمع جنين، وفي هذا دلالة على إحاطة علم الله بالأشياء، فإن بطن الأم في غاية الظلمة، ومن عَلِمَ بحال الجنين فيه لا يخفى

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) الحدود: هي الذنوب التي نجب فيها عقوبة حددها الشرع كالقتل والسرقة والزنا وغير ذلك.

عليه ما ظهر من حال العباد.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أنفُسَكُم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أي لا تمدحوها، ولا تبرّئوها مِنَ الآثام ولا تُثنوا عليها، فإن عدم تزكية النفس يبعدكم عن الرياء، وهو سبحانه أعلم بمن خافه، واتقى ما يغضبه. وقد يراد بقوله تعالى: ﴿ فلا تُزكّوا أنفُسَكُم ﴾ أي لا يثني بعضكم على بعض، وقد عبّر بأنفسكم عن الغير لأن المؤمنين جماعة واحدة متشابكة وأجزاء في جسم واحد، فكأن ما ينسبه الواحد منهم إلى غيره ينسبه إلى نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَلْمِزُوا أنفُسَكُم ﴾ واللمز هو الطعن، والمراد الطعن بالغير لأن الإنسان لا يطعن بنفسه.

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان العدالة الإلهية يوم الجزاء في الآخرة:

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى . أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى . أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما في صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذي وَفَّى. ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى . وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾.

﴿ أَفَرَأَيتَ ﴾ الهمزة للاستفهام، أي هل تأملت وعلمت ﴿ الذي تَوَلّى ﴾ أي الذي أعرض عن الإيمان واتباع الحق. ﴿ وأَعْطَى قَلِيلاً ﴾ أي أعطى قليلاً من المال ﴿ وَأَكْدَى ﴾ قطع العطاء وأمسك.

ولكن من الذي أعرض عن الإيمان، وأعطى القليل من المال ثم أمسك عن العطاء؟ قيل: إنه الوليد بن المغيرة وكان قد اتَّبع رسول الله على دينه فعيّره أحـد المشركين وقال له: لِمَ تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له هذا الرجل إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى دينه السابق أن يتحمل عنه عذاب الله في الآخرة، فأعطى الوليد الذي عاتبه بعض ما كان تعهد به، ثم بخل ومنع العطاء عنه.

فالذي فهمه الوليد بن المغيرة من أن الغير يتحمل عنه مسؤولية عمله في

الآخرة أجاب عنه القرآن بأمرين: أولهما ما سبق ذكره من أنه لا علم له بالغيب حتى يعرف مصيره الأسود يوم القيامة. وثانيهما هو ما ورد في صحف الأنبياء السابقين من أن كل إنسان يتحمل إثم عمله بنفسه لا بواسطة غيره قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أي أَلَمْ يُخبر بما اشتملت عليه الكتب المنزلة من الله، وهي صحف موسى «أي التوراة» وصحف إبراهيم ذلك النبي الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه وبلّغ رسالة ربه، هذه الصحف اشتملت على هذه القاعدة الجليلة التي جاء القرآن مصدّقاً لها والتي ردّدها خمس مرات لتأكيدها في النفوس:

﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾.

أَلاَّ: أن المخففة من الثقيلة مدغمة بـ لا، النافية. تَزِرُ: تحمل. وَازِرَة: نفس آثمة مذنبة. وِزْرَ أُخرى: إثم نفس أخرى. والوزر هو الذنب والإثم. والمعنى الإجمالي للآية: لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، ولا يُؤخذ أحد بذنب غيره.

هذه القاعدة الجليلة العادلة بالرغم من سريان مفهومها في الحساب على الأعمال يوم القيامة، هي في الوقت نفسه تعليم للبشر للأخذ بمضمونها في حياتهم الدنيا وسائر تصرفاتهم فيها، فلو عمل الناس بمضمونها لتجنّبوا كثيراً من الظلم والجرائم التي تقع في بقاع الأرض، ويكون ضحيتها الأبرياء. فجرائم الأخذ بالثأر، والاقتصاص من البريء كلها خروج على هذه القاعدة الجليلة.

ويتابع القرآن قوله: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ هذه الآية وثيقة الصلة بالتي قبلها، فكما أن الإنسان في جانب الأوزار لا يسجل عليه ذنب غيره، كذلك في أعمال البر لا يُسَجّل عليه إلاّ ما جنته يداه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الإمام الشافعي ومن اتبعه أن قراءة القرآن لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنها ليست من عملهم ولا من كسبهم، ولهذا فإن رسول الله لم يحث أمته على تلك القراءة، ولا أرشدهم إليها بنص ولا إيماء، ولم يُنقل ذلك عن أحد من الصحابة، أما الدعاء والصدقة فمجمع على وصول ثوابها للميت إذا كان مؤمناً.

ويتابع القرآن قوله: ﴿ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أي أن عمله يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة ﴿ ثم يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾ أي ثم يجزي الله الإنسان على عمله الجزاء التام. ﴿ وأنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهى ﴾ أي المرجع والمصير إلى الله الذي سيجازي الناس على أعمالهم.

وبعد عرض هذه الحقائق التي تبين مسؤولية الإنسان في عمله، ينتقل القرآن إلى بيان عظمة القدرة الإلهية وضآلة الإنسان حيالها:

﴿ وأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّه خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إذَا تُمْنَى . وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَة الأُخْرَى . وَأَنَّه هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى . وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾.

فالله سبحانه هو الذي خلق الفرح الذي يتسبب عنه الضحك، وخلق الحزن الذي يتسبب عنه البكاء، فمهما بلغ الإنسان من مراتب المُلك والعظمة والغنى فإنه سيقف يوماً هذا الموقف الذي تنهمر فيه دموعه لمؤثرات خارجة عن إرادته كموت أحد أفراد أسرته، وهذا يدل على ضعف الإنسان وأنه رهنُ من بيده الملك، لا حول له ولا قوة.

﴿ وأنه أمات وَأَحْيَا ﴾ هذه الآية تبين عظمة القدرة الإلهية المسيطرة على هذا الكون، ففي كل لحظة تتكرر هذه الصورة ملايين المرات في عالم الأحياء على هذه الأرض، أناس وحيوانات تُبصر النور، وآخرون يودعون هذه الحياة قسراً عنهم.

ثم يبين الله أنه خلق الزوجين: الذكر والأنثى ﴿ من نطفة إذا تُمنى ﴾ والنطفة هي منيّ الرجل. وتُمنى: أي تُصب في رحم المرأة. وسنزيد ذلك إيضاحاً في التفسير العلمي في آخر السورة.

﴿ وأن عليه النَّشْأَةَ الأُخْرَى ﴾ أي وأنه سبحانه تكفل بإعادة الأرواح إلى الأجساد عند البعثِ يوم القيامة ليُجازي سبحانه كلاًّ من المحسن والمسيء حسب عمله. ﴿ وَأَنَّه هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ فهو سبحانه أغنى العباد بفضله، وهو

سبحانه أقنى: أي أعطاهم ما فيه من المال الذي يُدَّخر ويُقتنى، وقيل: أقنى بمعنى أرضى، فهو سبحانه أرضى العباد ولم يدعهم محتاجين لأحد.

﴿ وَأَنَّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ والشعرى هي ألمع ما يرى من نجوم السماء، وتسمى بالنجم الكلبي، وقد اختصها الله بالذكر لأن بعض العرب كانوا يعبدونها، وكان قدماء المصريين يعبدونها أيضاً، فأعلم الله الناس أن الشعرى ليست رباً، وأن لها رباً هو الله سبحانه.

ثم يبين الله سبحانه ما فعل بالأمم السابقة جزاء كفرهم:

﴿ وأَنَّه أَهْلَكَ عَاداً الأُولى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنَّهُم كَانُوا هُمْ أَظْلَم وَأَطْغَى . والمؤْتَفِكَةَ أهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تتَمارَى ﴾.

فالله أهلك قوم عاد وثمود. وعاد وثمود من قبائل العرب البائدة، وسُمُّوا بذلك لأنهم بادوا أي هلكوا، ولم يبقَ على وجه الأرض أحد من نسلهم. وقد بعث الله في قوم عاد نبياً منهم اسمه « هود » عليه السلام كما بعث الله في قوم ثمود نبياً منهم اسمه « صالح » عليه السلام. وَوُصِفَت عاد بالأُولى لأنهم كانوا قبل ثمود، وقيل لأنهم أوّل أُمة أُهلكت بعد قوم نوح، وقيل إنها طبقتان: عاد الأولى، وعاد الثانية. ومعنى ﴿ فما أَبْقَى ﴾ أي أنه سبحانه دمرهم وأهلكهم فلم يُبقِ من عاد وثمود أحداً.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي وأهلك الله أمة نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إنَّهم كانوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ أي أنهم أكثر ظلماً، وأشد طغياناً من الفريقين السابقين.

﴿ والمؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ الائتفاك: الانقلاب، والمؤتفكة مدائن قوم لوط، وسميت بالمؤتفكة لأنها انقلبت بهم، وصار عاليها سافلها. وأهوى: أي جعلها سبحانة تهوي على أهلها فتتدمر ويهلك أهلها ﴿ فَغَشَّاها مَا غَشَّى ﴾ أي أحاط بها من العذاب ما أحاط، أو غشاها ما غشى من الحجارة التي أمطرها الله عليهم، كما قال سبحانه: ﴿ وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم حِجَارَةً مِن سجيّل ﴾. الحجر: ٧٤.

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارَى ﴾ الآلاء: هي النِّعَم. وتتمارى: تتشكك، أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته في إهلاك الأمم الظالمة تتشكك أيها الإنسان وترتاب، وتسمية الأمور التي ذُكرت من إهلاك الظالمين بأنها من نعم الله حيث أنها نُصرةٌ للأنبياء والمؤمنين، وتطهير للأرض من شر هؤلاء الظالمين.

وأخيراً يختم الله هذه السورة منذراً الكافرين، داعياً إياهم إلى الخضوع له وعبادته وحده:

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى . أَزِفَتِ الآزِفَة . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كاشِفَة . أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ . وَأَنْتُم سَامِدُونَ . فاسْجُدوا لِلَّهِ واعْبُدُوا ﴾.

قيل المقصود بالنذير هو محمد ﷺ، وقيل: إنه القرآن فهو نذير من جنس الإنذارات المتقدمة التي سمعتم عاقبتها، وفي ذلك تخويف لأمة محمد ﷺ وكافة الأمم من أن يحل بهم من العذاب والهلاك مثل ما حلَّ بالأمم السابقة إن ساروا على نهجهم.

﴿ أَزِفَتِ الآزِفَة ﴾ أزفت: قربت، والآزفة المراد بها القيامة لأنها قريبة الحدوث بالنسبة لما مضى من الزمان ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَة ﴾ أي ليس لها غير الله من يكشف عن وقت وقوعها، فعلمها مما اختص به الله سبحانه وحده.

﴿ أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُون ﴾ المراد بالحديث هنا: القرآن، أي أفمن هذا القرآن تعجبون فتنكرونه ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ أي تضحكون استهزاء وسخرية منه ولا تبكون كما يفعل المؤمنون الموقنون بلقاء ربهم ﴿ وَأَنْتُم سَامِدُونَ ﴾ لاهون معرضون عنه ﴿ فاسْجُدوا لِلَّهِ وَاعْبُدوا ﴾ أي فاخضعوا لله وأفردوه بالعبادة، فهو الذي أنزل القرآن هدى للناس، ودعوا ما أنتم فيه من عبادة للأوثان والأصنام والإشراك بالله لعل الله يرحمكم.

جنس الجنين مصدره الرجل:

يقول تعالى:

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . مِنْ نُطْفَةٍ إذَا تُمْنَى﴾.

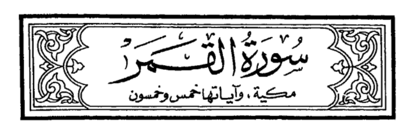
فالله سبحانه يقول إنه خلق الذكر والأنثى من المنيّ الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة.

والملفت للنظر أن القرآن نص على أن جنس الذكورة، أو جنس الإناث مصدره منيّ الرجل، وهذا من الحقائق التي توصل إليها العلم حديثاً، وأعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً.

فالسائل المنوي الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة يحتوي على ملايين الحييات (أي الحيوانات) المنوية، وهذه الحييات تحمل صبيغات أنثوية وذكرية معاً. وأحد هذه الحييات المنوية من الملايين هو الذي يخصب بويضة الأنثى.

فإذا كان الحيوان المنوي الذي يخصب بويضة الأنثى للإنجاب يحمل صبغيات أنثوية كان الجنين أُنثى، وإذا كان الحيوان المنوي يحمل صبغيات ذكرية كان الجنين ذكراً.

وهكذا نرى القرآن سبق العلم إلى إقرار حقائق عن تكوين الإنسان لم تُعرف إلاّ منذ أمد قريب. وذلك بعد الاستعانة (بالميكروسكوب) والتحاليل الطبية. وهذا مما يشهد بأن القرآن وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقاً.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا
وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ
مُسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ

شرح المفردات

اِقْتَرَبَت السَّاعَةُ: قَرُبت القيامة.

انشَقَّ القَمَرُ: إنفلق فلقتين معجزة لمحمد ﷺ.

آيَةً: معجزة.

يُعْرِضُوا: يكذِّبوا.

مُسْتمِرّ: دائم، أو بمعنى: ذاهب.

وكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرّ: أي يستقر بكل عامل عمله، فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار.

الأَنْبَاء: أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا بسبب كُفرهم.

مُزْدَجَر: ما يزجرهم ويردعهم عَمَّا هُم عليه من التكذيب والكفر.

حكْمَةٌ بَالِغَةٌ: الحكمة هنا القرآن، وقد بلغت الغاية من السُموّ ليس فيها نقص ولا خلل.

فما تُغْني النُّذُر: فما تنفع الإنذارات لقوم لا يؤمنون بها.

فَتَوَلَّ عَنْهُم: فأعرِض عنهم.

يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ: يوم ينفخ الملك إسرافيل في البوق النفخة الثانية ليُبعث الناس

إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ
هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا
وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ
﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ
عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ

شرح المفردات

شَيْءٍ نُكُرٍ: منكر فظيع (هول يوم القيامة).
خُشَّعاً أبْصارُهُمْ: ذليلة أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول.
الأَجْداث: القبور.
مُهْطِعِين: مسرعين، مادين أعناقهم ناظرين إليه.
يَوْمٌ عَسِر: يوم صعب شديد لعظم أهواله.
قَبْلَهُمْ: أي قبل مشركي أهل مكة.
ازْدُجِرَ: زُجِرَ عن تبليغ رسالة ربه بالشتم والتخويف.
مَغْلُوبٌ فانْتَصِر: مقهور فانتقم لي منهم.
بِمَاءٍ مُنْهَمِر: ماء منصب انصباباً شديداً.
فجَّرْنَا الأَرْضَ عيوناً: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة.
فالْتقى الماءُ: أي التقى ماء الأرض والماء النازل من السماء.
أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ: أمر قَدَّره الله وقضاه (هلاك قوم نوح).

وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً
فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا
أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ

شرح المفردات

دُسُر: جمع دِسار وهو الخيط من ليف تُشَدُّ به ألواح السفينة. وقيل: المسمار.
تجري بأعيُننا: تجري بمرأى الله وحفظه ورعايته.
كُفِر: كذَّب وجحد ما جاء به نوح من الهدى.
تَرَكْنَاهَا آيةً: تركنا حادثة الطوفان، أو آثار السفينة عظة وعبرة.
مُدَّكِرٍ: متذكر يعتبر بذلك.
نُذُر: جمع نذير بمعنى الإنذار.
يَسَّرنَا القرآن للذِّكْرِ: سهَّله الله للحفظ، وهيأه للتذكر والاتعاظ.
ريحاً صرصراً: ريحاً شديدة البرودة شديدة الصوت.
يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ: يوم شؤم دائم نحسه عليهم.
تَنْزِعُ النَّاسَ: تقلعهم من مواضعهم.
أَعْجَازُ نَخْلٍ: أصول نخل بلا فروع.
مُنقَعِر: مُنقلع من مغرسه.
سُعُر: عناء وعذاب.

أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾

شـرح المفـردات

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا: أُخصِّصَ بإنزال الوحي عليه من دوننا.

أَشِرٌ: بَطِر متكبِّر.

فِتْنَةً لَهُم: إمتحاناً وابتلاء لهم.

فارْتَقِبْهُم وَاصْطَبِر: إنتظر ما يصنعون واصبر على أذاهم.

أَنَّ الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُم: إن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة يوماً لهم، ويوماً لها.

كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ: كل شرب يحضره صاحبه في يومه ويستحقه.

فَتَعَاطَى فَعَقَرَ: فتناول الناقة بيده ونحرها.

كَهَشِيمِ: يابس النبات الذي يتكسّر ويتحطم.

الْمُحْتَظِرِ: هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر.

حَاصِباً: ريحاً ترميهم بالحصى أو الحجارة.

بسَحَرِ: هو ما بين آخر الليل وطُلوع الفجر.

نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم
بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ
فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم
بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ
آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ
عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ
فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ

شرح المفردات

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا: ولقد حذّرهم بطش الله وعقابه.

فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ: فشكُّوا بالإنذار والوعيد.

رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ: طلبوا منه تمكينهم من ضيوفه لفعل الفاحشة بهم.

فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ: أعماهم الله، وصيّر أعينهم كسائر الوجه لا يُرى لها أثر.

صَبَّحَهُم بُكْرَةً: جاءهم وقت الصبح.

عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ: عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة.

في الزُّبُرِ: في الكتب السماوية أو في اللوح المحفوظ.

بآيَاتِنَا: بمعجزاتنا الدالة على توحيدنا وصدق نبوة أنبيائنا.

نَحْنُ جَمِيعٌ: جماعة، أو يد واحدة على من خالفنا.

سَيُهْزَمُ الجَمْعُ: أي جمع كفّار مكة.

ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

شرح المفردات

يُوَلُّونَ الدُّبُرَ: يفرون منهزمين.

السَّاعَة أدْهَى: أي القيامة أفظع، وأدهى من الداهية، وهي الأمر العظيم.

أَمَرُّ: أي أشد مرارة من القتل والأسر.

سُعُر: عناء، أو نيران مسعّرة.

مَسَّ سَقَرَ: عذاب جهنم.

خَلَقْنَاهُ بقدرٍ: بتقدير سابق، أو بمقدار.

إلاّ وَاحِدَةٌ: كلمة واحدة هي «كن».

أشْيَاعَكُم: أمثالكم في الكفر وأشباهكم.

الزُّبُر: كتب الحفظة من الملائكة أو في اللوح المحفوظ.

مُسْتَطَر: محفوظ مكتوب.

مَقْعَدِ صِدْقٍ: مكان مرضي عنه، ومجلس حق وهو الجنة.

مقتدر: قادر على كل شيء.

سُورَةُ الْقَمَرِ

ايضـــاح و دروس

في هذه السورة استعراض لبعض أصحاب الرسالات الإلهية السابقة، الذين أتوا قومهم بالهدى والصلاح، لكن قومهم تنكّروا لهم وقاوموهم واضطهدوهم، فأرسل الله على هؤلاء الظالمين العذاب وأهلكهم، ونجّى الله رسله ومن آمن من قومهم من العذاب والهلاك.

فالهدف من عرض أخبار الأمم السالفة - وما حل بهم من هلاك جزاء كفرهم - هو تثبيت قلب الرسول محمد ﷺ ومن آمن معه، وإعلامهم بأن شأن الهداة والمصلحين وأهل الإيمان أن يقاومهم قومهم ويضطهدوهم، ولكن الغلبة والنصر سيكونان لا محالة لهم في نهاية الأمر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا العرض يهدف إلى إنذار الكافرين بسوء المصير.

وهذه السورة قَصُرَت آياتها، واتّسقت فواصلها، واطَّردت في أواخر الآيات على نسق معين، كما نرى في أسلوبها ذلك الإيقاع الموسيقي مع سُهولة اللفظ، وعُذوبة السبك مما يعطي تأثيراً في النفس.

استهلّ الله هذه السورة بتخويف الكفار بقرب قيام القيامة، مع ذِكْرِ معجزة من المعجزات التي أيدّ الله بها نبيه ﷺ:

﴿إقْتَرَبَتِ السَاعَةُ وانشَقَّ القَمَرُ . وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أمر مُسْتَقِرٌّ . وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنْ الأَنْبَاءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

فمعنى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي قَرُبت القيامة، وسُميت القيامة بالساعة لأن وقتها هو ساعة الفصل بين الخلائق. وقد يقول القائل: لقد مضى على نزول الآية زمان طويل فكيف يكون زمان الساعة قد اقترب، والجواب: أنه اقترب بالنسبة لما مضى من عمر الدنيا، لأن القرب مسألة نسبية فقد تكون

لحظات أو ساعات أو ألوف السنين، والمؤمن يجب أن يتوقع القيامة في أية لحظة، وأن يعمل لآخرته على هذا الأساس.

﴿ وَانْشَقَّ القَمَرُ ﴾ اختلف المفسرون في المراد بانشقاق القمر، فقيل: المراد إنه انفصل بعضه عن بعض حتى صار فلقتين وذلك على عهد رسول الله، وكان ذلك معجزة له، فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية (أي معجزة) فأراهم انشقاق القمر[1]. وقال قوم: لم يقع إنشقاق القمر بعدُ وهو منتظر، ويكون المعنى: اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره. وقالوا لو انشق القمر على عهد النبي لرآه جميع الناس ولم تقتصر رؤيته على البعض لأنه معجزة والناس في رؤية المعجزات سواء.

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ الآية: المعجزة، أي وإن يروا معجزة تدل على صدق النبي ﷺ يُعرضوا عن التأمل فيها والاتعاظ بها ﴿ وَيَقُولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ ومستمرّ بمعنى ذاهب أي باطل لا دوام له.

﴿ وكَذَّبُوا واتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ ﴾ هذه علامة الكافرين فهم يكذبون أنبياءهم وهم بذلك يتبعون أهواء نفوسهم ورغباتهم وما زيّنه الشيطان لهم.

﴿ وكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي أن كل أمر من أمور هذا العالم منته إلى غاية، فالخير يستقر بأهل الخير، والشرّ يستقر بأهل الشر.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنْبَاءِ ﴾ أي جاء هؤلاء القوم من أخبار الأمم السالفة الذين حلّ بهم العذاب والهلاك بسبب كفرهم ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي ما يزجرهم ويردعهم عن الكفر.

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ فالحكمة هنا مراد بها القرآن، الذي احتوى على حِكَم

---

(١) روى الإمام مسلم أحاديث بهذا المعنى أيضاً.

وعِظات بالغة النهاية في ردع الشر ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ فأي نفع تفيد الإنذارات من انصرف عنها ولم يتعظ بها.

ثم يبين القرآن بعد ذلك سوء مصير الكافرين يوم القيامة:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إلى شيءٍ نُكُرٍ . خُشَّعاً أَبْصَارُهُم يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ منتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إلى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾.

فالله يخاطب نبيه بقوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم، والمراد ترك الجدال والمناظرة معهم. ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ والداعي هو مَلَكٌ من الملائكة، اسمه إسرافيل الذي ينفخ في البوق يوم القيامة النفخة الثانية، فيخرج الأموات من قبورهم أحياء للحساب. والداعي يدعوهم ﴿ إِلَى شَيءٍ نُكُرٍ ﴾ أي إلى شيء منكر تنكره النفوس لشدته وهو كرب يوم القيامة وشدته، وهم في هذا الكرب ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي أبصارهم خاضعة ذليلة ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُم جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ والأجداث: هي القبور، أي يخرجون من القبور وكأنهم الجراد المنتشر، والجراد هو الحشرة المعروفة التي تأتي على الأخضر واليابس من الزرع، ووجه الشبه هنا من حيث كثافة الجراد في انطلاقه، إذ يصل الأمر به إلى حد أن يحجب رؤية الشمس، وهذا هو شأن ملايين الملايين من البشر عندما يُبعثون أحياء يوم القيامة من قبورهم وهم ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ أي مسرعين مادين أعناقهم ناظرين إلى الداعي ﴿ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أي يوم صعب شديد لما يشاهدون فيه من الأهوال وسوء المصير.

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى ذِكْرِ أحوال بعض الأمم السالفة التي حلّ بها العذاب والهلاك في الدنيا بسبب كفرها، ورفضها دعوة أنبيائها، مذكِّراً بذلك كفار قريش ليعتبروا ويرتدعوا، وقد استهلت الآيات ببيان ما حلّ بقوم نوح عليه السلام:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالوا: مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.

هذه الآيات تشير إشارات موجزة لقصة نوح عليه السلام، وهي على إيجازها تتضمن كل عناصر القصة كما فصّلها القرآن في السور الآتية: الأعراف، وهود، ونوح.

فالله يخبرنا بأنه كما كذّب كفار مكة نبيهم محمداً ﷺ فقد كذّب قبلهم قوم نوح الذين كذّبوا نبيهم نوحاً ورموه بالجنون ﴿ وازْدُجِر ﴾ أي حالوا بينه وبين تبليغ رسالة ربه بأنواع من الأذى والتخويف. عندئذ دعا نوح ربه: أني مغلوب يا رب من قومي وضعيف عن مقاومتهم فانتقم لي منهم.

إستجاب الله دعاء نوح وأهلك قومه بالطوفان بعد أن نجاه ومن آمن معه بالسفينة التي أمره بصنعها والركوب فيها قبل حصول الطوفان.

ويصوّر القرآن مشهد هذا الطوفان بتلك الصورة الحية المعبرة حيث بدأت تباشيره بالمطر الشديد ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ فكأن للسماء أبواباً تفتحت ومنها تنصب المياه كالسيول على الأرض، وإضافة إلى ذلك ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً ﴾ أي وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجّر بالماء، ﴿ فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي أن ماء الأرض وماء السماء التقيا ليحصل من جراء ذلك الطوفان الذي قدّره الله وقضاه لهلاك الكافرين. كما قد هيأ الله سبيل النجاة لنوح ومن آمن معه على السفينة التي أمره بصنعها قبل الطوفان ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ أي وحملنا نوحاً على سفينة من خشب تَشدُّ ألواحها مسامير أو خيوط من ليف. ووسط هذا الطوفان تسير السفينة بمن فيها بأمر الله وحفظه ورعايته، وهذا هو المراد من قوله تعالى:

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ وهكذا كان الطوفان عقاباً وجزاء للذين كفروا: ﴿ جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴾. ثم يقول سبحانه ﴿ وَلَقَد تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ أي تركنا حادثة إغراق قوم نوح ونجاة المؤمنين عبرة وعظة لمن يأتي بعدهم من الأمم. وقد يُراد بالآية السفينة نفسها فقد رُوي عن قتادة [1] أن الله أبقى سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة. ثم يقول سبحانه: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متعظ ومعتبر؟

ويعقب الله على هذا الحدث بآيتين ردَّدها في آخر كل مشهد من مشاهد العذاب الذي حل بالأمم السالفة، الآية الأولى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فانظروا أيها الناس كيف كان عذابي وعقابي لهم على كفرهم، وإنذاري لمن سلك سبيلهم بحلول مثل ذلك العقاب بهم. والآية الثانية: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي لقد سهلنا القرآن للحفظ وهيأنا للتذكر والاتعاظ فهل من متعظ بمواعظه؟

وبعد قصة نوح شرع القرآن في ذكر قصة قوم عاد وما حلّ بهم جزاء كفرهم، وعاد قبيلة من قبائل العرب البائدة، سُمّيت باسم جدها الأعلى «عاد» الذي يرجع نسبه إلى نوح عليه السلام.

وعاد كانت مساكنهم «بالأحقاف» أي الرمال وموقعها بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر. وكانت هذه القبيلة تعبد الأصنام فأرسل الله إليهم نبيه هوداً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، وأنذرهم من عذاب الله إن استمروا على كفرهم، فلم ينصتوا بأسماعهم إلى إنذاره، بل رموه بالسفه والطيش والكذب، فأهلكهم الله بريح شديدة استمرت أياماً، ونجَّى الله هوداً ومن آمن معه.

وقد ورد ذكر قبيلة عاد في كثير من سور القرآن بأساليب مختلفة، بعضها يسهب في الكلام عنها، والبعض الآخر يشير إليها بإيجاز كما في هذه السورة حيث يقول تعالى:

---

(١) قتادة: من مشاهير المفسرين من التابعين وغالب أقواله في التفسير تلقاها من الصحابة.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.

كذبت عاد نبيهم هوداً، فعلى أي حال كان عذاب الله وإنذاره للمخالفين أوامره؟! لقد كان من غير شك على كيفية هائلة من العذاب. ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي سَلَّط الله عليهم ريحاً شديدة البرودة شديدة الصوت ﴿ في يَوْم نَحْسٍ مُسْتَمِرٌّ ﴾ أي في يوم شؤم عليهم مستمر حتى أهلكهم جميعاً، ويمكن أن نفهم من قوله تعالى: ﴿ مُسْتَمِرّ ﴾ أن الريح استمرت سبع ليال كما جاء في سورة الحاقة، أو أن عذابهم كان غير منقطع لاتصال عذابهم الدنيوي بالأخروي. وهذه الريح كانت ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ أي تقلع الناس من أماكنهم، وترميهم صرعى على الأرض كأنهم أصول النخل وقد انقلعت من مغارسها في الأرض.

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى الكلام عن قبيلة ثمود وما حلّ بها جزاء كفرها. وثمود من قبائل العرب البائدة سميت باسم جدها الأعلى ثمود الذي يرجع نسبه الى نوح عليه السلام، وكانت مساكن ثمود في الحِجر في وادي القرى من الحجاز. وكانت هذه القبيلة تعبد الأصنام، فأرسل الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادته وحده.

لم تؤمن قبيلة ثمود بما دعاها إليه نبيها من عبادة الله، بل راحوا يتهمونه بالهذيان والكذب وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تدل على أنه رسول الله حقًّا، فأيَّده الله بالناقة التي خلقها سبحانه على غير المألوف «قيل أنها خرجت من صخرة» وأمرهم سبحانه ألاّ يمسوها بسوء، وجعل الله لهم شُرباً في يوم معلوم، وجعل لها شرباً في يوم غيره، وأوعدهم بالعذاب إن اعتدوا عليها بسوء.

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل من نبات الأرض تَرِدُ الماء يوماً، وتبتعد عنه يوماً آخر، وقد استالت هذه الناقة بعض الكافرين، إذ رأوا فيها معجزة

تدل على صدق نبوة صالح فآمنوا بالله واتبعوه، فأفزع هذا الأمر طبقة الأشراف وخافوا من ازدياد عدد المؤمنين، فأرسلوا أحدهم لقتل هذه الناقة، وقد نحرها بالرغم من تحذير نبيهم من خطورة هذا العمل، فأرسل الله على ثمود صيحة واحدة أهلكتهم بعد أن نجى الله نبيه صالحاً ومن معه من المؤمنين من الهلاك.

هذا ملخص ما جاء في القرآن الكريم عن قصة ثمود التي ورد ذكرها في كثير من السور أما في هذه السورة فيشير إليها القرآن إشارات موجزة كما نراه في الآيات التالية:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنُّذُرِ . فَقَالوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إنَّا إذاً لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ . أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَداً مِنَ الكَذَّابُ الأَشِرُ . إنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ واصْطَبِر . وَنَبِئْهُمْ أنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ . فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ أي كذبت ثمود بإنذارات نبيهم صالح بأن عذاباً سيحل بهم إن استمروا على كفرهم.

﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ ﴾ أي قالوا: أنتبع واحداً من عامتنا وليس من أشرافنا، وهو واحد لا أتباع له ولا عصبية تشد من أزره.

﴿ إنَّا إذاً لَفي ضَلاَلٍ وَسُعُر ﴾ والسعر: الجنون، وقيل: البُعد عن الحق. أي أننا إذا اتبعناه كنا غير مهتدين، وكنا في حالة جنون وبُعْدٍ عن الحق.

﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ الذكر: هو الوحي، والأَشِر: المتكبر والبطر. والمعنى: كيف خُصَّ من بيننا بالوحي الإلهي وفينا من هو أحق بذلك، إنه بادعائه النبوة متكبر بَطِر يريد العلو علينا.

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ أي سيعلمون قريبا يوم ينزل بهم العذاب من هو الكذاب المتكبر البطر.

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ إننا سنرسل لهم الناقة معجزة كما طلبوا وستكون فتنة لهم: أي امتحاناً واختباراً لهم، والمعجزة في إرسال الناقة أن الله أخرجها من صخرة أمام أعينهم.

﴿ فَارْتَقِبْهُمْ واصْطَبِرْ﴾ فانتظرهم وتبصّر ما هم فاعلون، واصبر على ما يصيبك من أذاهم حتى يأتيهم أمر الله بعذابهم.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أخبرهم يا صالح أن الماء الذي يشربونه مقسوم بينهم وبين الناقة لها يوم، ولهم يوم.

﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ كل نصيب من الماء يحضره صاحبه في يومه المخصص له للشرب، فتحضر الناقة يوماً وتنال شربها، ويحضر القوم يوماً آخر وينالون شربهم.

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُم فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ أي نادوا صاحبهم يحضّونه على عقرها وهو « قدار بن سالف » وكان أجرأهم على المعصية فتناول الناقة بسيفه ونحرها.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فعلى أي حال كان عذابي وإنذاري للمخالفين أمري؟

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ والصيحة التي أرسلها الله عليهم قيل إنها صيحة جبريل، وقيل إنها الصاعقة كما جاء في القرآن: ﴿ فَأَخَذَتْهُم الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرون﴾ الذاريات: ٤٤ . والصاعقة تحدث صوتاً عظيماً فذلك المراد بتسميتها بالصيحة، وكانت من القوة والعِظَم أن أهلكتهم جميعاً وجعلتهم ﴿ كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ﴾ أي أصبحوا كأغصان الشجر اليابسة التي يجمعها صانع حظيرة الدواب ليبني بها حظيرته، وقيل: كالعظام النخرة المحترقة وهذا

---

(١) اصطبر: اصبر، وهذا اللفظ افتعل من الصبر.

كناية عن أنهم أصبحوا نتفاً من أجساد هامدة من غير روح.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ولقد سهلنا القرآن للعظة والاعتبار، فهل من متعظ؟

وبعد الكلام عن ثمود ينتقل القرآن إلى الكلام عن قوم لوط الذين كان موطنهم في الأردن في مدينة سدوم[1] وكان أهل هذه المدينة من أفجر الناس وأكفرهم، يقطعون الطرق للسلب ويأتون في ناديهم المنكر، وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي الشذوذ الجنسي، ونعني بهذه الفاحشة: إتيان الذكور بدل الإناث، فأرسل الله نبيه لوطاً لهدايتهم وتحذيرهم من سوء أفعالهم فكذبوا نبيهم، وهددوه بإخراجه من قريتهم.

وحدث أن بلغ قوم لوط نبأ نزول ضيوف حسان على لوط، فأسرعوا إلى بيته لينالوا غايتهم الدنيئة من ضيوفه بالإكراه، حاول لوط إقناع قومه بالعدول عما عزموا عليه ولكنه لم يفلح، وعندما اشتد الأمر وأصروا على لقائهم خرج إليهم أحد الضيوف الذين كانوا في الحقيقة ملائكة في صورة البشر، وقيل إن الذي خرج إليهم هو جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست، وفقدوا أبصارهم، فتبدد شملهم، ورجعوا من حيث أتوا يتلمسون الطريق، ثم كشف الملائكة حقيقة أمرهم للوط، وأخبروه عن سبب مجيئهم وهو إهلاك قومه الذين تمادوا في كفرهم وفحشهم، وأمروه بمغادرة القرية مع أهله بدون امرأته لأنها ساء عملها، وأن موعد إهلاكهم هو الصباح، ولما حلّ العذاب الذي قدّره الله وقضاه جعل عالي القرية التي كان يعيش بها قوم لوط سافلها، وأمطر عليهم في أثناء ذلك حجارة من طين متحجّر زيادة في عذابهم.

هذا ملخّص ما جاء في القرآن عن قوم لوط الذين وَرَدَ ذكرهم في القرآن في عدة سور وفي أساليب شتى وقد أوردنا هذا الملخص لنلقي الضوء على ما جاء في هذه السورة عنهم بإيجاز كما نراه في الآيات التالية:

---

(١) لم يسم القرآن اسم القرية وهذه التسمية جاءت في العهد القديم.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ . نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ. وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أي كذبت قوم لوط بإنذارات نبيهم الذي حذّرهم بحلول العذاب بهم إن استمروا على فعل الفواحش والمنكرات.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ أي عاقبهم الله بإرسال ريح تحمل الحصى، وكان ذلك بعد أن خسف القرية بهم حتى هلكوا باستثناء آل لوط وهم ابنتاه فقط ﴿ إلاّ آل لُوط نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ والسَحَر هو آخر الليل قبل طلوع الفجر، فلوط وابنتاه كانوا خارج القرية في هذا الوقت وبهذا نجوا من الهلاك.

﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي أنعم الله على لوط وابنتيه بالنجاة كرامة لهم منه ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ وهكذا يجزي الله من شكر نعمته بالإيمان والطاعة فينجيه من العذاب ومن كل سوء.

﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبة الله الشديدة ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ فارتابوا وكذبوا بالإنذار والوعيد ولم يصدّقوه.

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ أي أرادوا من لوط تمكينهم من ضيوفه لفعل الفاحشة كما هو دأبهم، وكان هؤلاء الضيوف ملائكة بصورة فتيان.

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي أذهب الله أعينهم وجعلها ممسوحة لا يُرى لها شق فلم يعودوا يرون شيئاً.

﴿ فَذُوقوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي ذوقوا بهذا العمى مقدمات عذاب الله وإنذاره.

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أي أتاهم صباحاً عذاب ثابت دائم لا يقدر أحد على إزالته.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فعلى أي حال كان عذابي وانذاري للمخالفين أمري؟

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد سهلنا القرآن للعظة والاعتبار فهل من متعظ بمواعظه.

هذا هو العقاب الإلهي الذي حلّ بقوم لوط بيّنه القرآن ليحذر كل من يسلك مسلكهم فيصيبه مثل ما أصابهم.

فاللواط فاحشة من أقبح الفواحش لأنه خروج عن الناموس الكوني، فالحياة واستمرارها لا تقوم إلاّ على الذّكر والأنثى، ومن اتحادهما بالزواج تنشأ الحياة، أما اتصال الذكور بالذكور فهو عمل مضاد لناموس الطبيعة وقضاء على الأسرة التي هي عماد المسؤولية والعطف والرحمة. ولما كانت الشرائع السماوية قد أُنزلت لخير الإنسان فقد حرَّمت اللواط، واستحق قوم لوط أن يُبَادوا من الأرض لأنهم خرجوا على الناموس الكوني.

وبعد ذكر ما حل بقوم لوط انتقل القرآن إلى بيان ما حلَّ بقوم فرعون بسبب كفرهم بكلمات قليلة، هذا مع العلم أن قصة موسى مع فرعون وقومه من أكبر القصص في القرآن والتي جاء ترددادها في سُورٍ شتى، أما في هذه السورة ففيها تلميح عنهم كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾.

والمعنى: ولقد جاء فرعون وقومه إنذار من الله لهم بالعذاب والهلاك إن استمروا على كفرهم فكذّبوا بكل ما جاء على يد نبيهم موسى من المعجزات التي تشهد بصدق نبوته، ولم يؤمنوا بما جاء به من الهدى، فعاقبهم الله على كفرهم عقوبة شديدة، وهو الغالب في الانتقام، القادر على ما يريد، غير عاجز

ولا ضعيف.

وبعد هذا الحديث عن الأمم السابقة وما حلّ بها من الهلاك بسبب كفرها وتكذيبها لأنبيائها، أخذ القرآن يربط بين الكفار من الأمم السالفة، وبين الكفار من قوم محمد، متوجهاً إليهم بالسؤال، سؤال إنكار وتقريع:

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾

أي أأنتم يا كفار قريش أقوى من أولئكم الأقوام السابقين الذين أُهلكوا، وأحسن حالاً منهم، أم لكم براءة من العذاب، وصك من الأمان مسجّل ﴿ في الزُّبُرِ ﴾ أي في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء أم يقول هؤلاء الكفار ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أي نحن جمع كثير متفقون فلنا الانتصار على محمد. وهنا يردُّ الله على ادعاءاتهم: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أي سيُهزم جمع المشركين ويولون الأدبار فارين منهزمين.

هذه الآية التي تعلن انهزام المشركين هي معجزة للقرآن تشهد أنه وحيٌ إلٰهي، فهذه الآية نزلت في مطلع الدعوة الإسلامية، حين كان المسلمون قليلين مستضعفين مضطهدين من كفار قريش الذين كانوا يفوقونهم عدّة وعدداً، فالقرآن يتنبأ بمصير طغاة قريش، وأنهم سينهزمون على يد المسلمين، فما هي إلاّ فترة وجيزة على نزول هذه الآية حتى انتصر المسلمون في معركة بدر على طغاة قريش انتصاراً ساحقاً.

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله قال وهو في قبة يوم بدر: اللهم إني أَنْشُدُك[1] عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ[2]، اللهم إن تشأ لاتُعبد بعد اليوم، فأخذ أبو بكر بيده فقال حَسْبُكَ يا رسول الله ألححت[3] على ربك،

(١) أنشدك: أطلب منك.

(٢) عهدك ووعدك: ما وعده الله به من النصر.

(٣) الحجت: بالغت.

فخرج رسول الله وهو يثب في الدِّرع وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. فهذا النص القرآني الذي ردّده النبي ﷺ في هذا الموقف العصيب كان يعتبره بشارة للمؤمنين وتطميناً لهم من الله بالنصر على الأعداء.

هذا وقد انهزم كفار قريش في معركة بدر هزيمة نكراء بالرغم أنهم كانوا يفوقون المسلمين في عدد الجند وكمية السلاح، فكفار قريش كان عددهم يوم معركة بدر تسعمائة وخمسين مقاتلاً، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير محملة بالزاد والسلاح، بينما كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً، وقد بلغ عدد القتلى بعد المعركة من قريش سبعين رجلاً، وأُسر منهم سبعون آخرون، أما قتلى المسلمين فبلغوا أربعة عشر رجلاً.

وبعد أن حَكَمَ القرآن بهزيمة المشركين عقّب على ذلك: ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ أي أن القيامة موعد عذاب المشركين، وعذاب القيامة أعظم في الضر وأفظع، وأشد مرارة من عذاب الدنيا.

ويتابع القرآن فيذكر نوع العذاب الذي يقاسيه المجرمون من الأمم السالفة والأمم اللاحقة في الآخرة:

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّار عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

فالمجرمون في ﴿ ضَلاَلٍ﴾ والضلال هو في مقابل الهداية، وهو العدول عن الطريق المستقيم ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي في نيران تلتهب بهم في جهنم، حيث يُجَرُّون في النار على وجوههم، ويقال لهم إيلاماً ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي ذوقوا حرّ النار وشدة عذابها.

وأخيراً يختم القرآن هذه السورة مبيناً قدرة الله العظيمة، وعلمه المحيط بالكون، وما أعد للمتقين من نعيم في الآخرة:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . وكُلُّ شَيْءٍ فَعلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبيرٍ مُسْتَطَرٌ . إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾.

فالله سبحانه خلق كل شيء في هذا الكون ﴿بِقَدَرٍ﴾ والقَدَر هو ما يُقدِّره الله من القضاء ويحكم به من الأمور، والتقدير بمعنى التروية والتفكير في تسوية أمر وتهيئته، وتأتي (قدَر) بمعنى المقدار. ويقول الطبري في تفسير الآية: إنّا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه. وهذه الآية فيها إعجاز وهي على قصرها ينطوي مضمونها على معاني عظيمة تشير إلى مدى قدرة الله وتدبيره المحكم في شؤون الكون، وسنوضح ذلك في التفسير العلمي في آخر السورة.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ﴾ أي وما أمر الله لشيء من الأشياء إذا أراد وجوده وتكوينه إلاّ كلمة واحدة تصدر منه وهي ﴿كن﴾ فيكون ذلك الشيء، ويُوجد كسرعة اللمح بالبصر لا يبطىء ولا يتأخر.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي ولقد أهلك الله أشباهكم وأمثالكم - يا كفار مكة - في الكفر من الأمم السالفة فهل من متعظ بذلك.

﴿وكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ الزبر: كتب الحفظة من الملائكة. فكل عمل تسجله الملائكة في كتب ليحاسب عليها الخلق يوم الحساب.

﴿وكُلُّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ أي كل عمل من الأعمال صغيراً كان أو كبيراً فهو ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ أي مسطور ومكتوب بتفاصيله. وكفار مكة لا يفهمون ولا يمكن أن يتصوروا كيف يمكن أن تحصى عليهم أقوالهم التي يتلفظون بها، أما نحن في العصر الحاضر فقد بدأنا نلمس ذلك باليد بعد أن انتشرت بيننا أجهزة التسجيل التي تسجل كل شيء من الصوت والصورة.

﴿إِنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَهرٍ﴾ أي إن المتقين يتنعمون في بساتين ذات أنهار.

﴿في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أي في مكانة رفيعة عالية، أو في مجلس حق لا ريب فيه، عند رب عظيم قادر على كل شيء.

فالمتقون هم في نعيم الجنان، وفي نعيم القرب من الرحمن، وأي منزلة أكرم من تلك المنزلة، إنها غاية السعادة التي يمكن أن يبلغها بشر.

التفسير العلمي

يقول تعالى في هذه السورة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي أنه سبحانه خلق كل شيء بمقدار قدَّره وقضاه. وجاء في القرآن ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. الرعد: ٨.

نعم كل شيء في هذه الدنيا جعله الله بمقدار. إن نسبة الأوكسجين تحد عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة فلو كان الأوكسيجين بنسبة ٥٠ بالمئة مثلاً فماذا يحدث؟ إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة.

والأوكسجين يمتصه كل كائن حيواني بينما يلفظ ثاني أوكسيد الكربون الذي يبني تكوينه منه، فلو كانت هذه المقايضة غير قائمة فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأوكسجين، أو كل ثاني أوكسيد الكربون، وحينئذ يذوي النبات ويموت الحيوان.

ثم إن إشعاعات الشمس هي بمقدار، فلو أعطت الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت المخلوقات الحية، ولو زادت إشعاعها بمقدار النصف لأصبح ما عليها رماداً. هذه أمثلة قليلة في هذا المجال، ولو أردنا أن نجول في هذا الكون، ونستعرض مخلوقات الله، ونتأمل في ما خلقه الله بمقدار مما يدل على الحكمة الإلهية لاستلزم ذلك مجلدات كثيرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ

شرح المفردات

الرَّحمنُ: مِنْ أسماء الله تعالى، أي الذي وسعت رحمته كل شيء
عَلَّمَ القُرآنَ: أي علَّم الإنسانَ القرآنَ ويَسَّرَ فهمَهُ
عَلَّمَهُ البَيَانَ: علّمه النطق والإفصاح عمّا في نفسه
بِحُسبَانٍ: أي يجريان بحساب معلوم في بروجهما ومنازلهما
النَّجْم: هنا معناه: النبات الذي لا ساق له
يَسْجُدَانِ: ينقادانِ لله فيما خُلقَا له
والسَّماءَ رَفَعَهَا: والسماءَ خلَقَها اللهُ ورفعها بقدرته
وَوَضَعَ المِيزَانَ: شَرَعَ العدلَ وأمرَ به الخلق
ألاَّ تَطْغَوْا في المِيزانِ: لئلاّ تتجاوزوا العدل والحق
بِالقِسْطِ: بالعدل
لا تُخْسِرُوا المِيزَانَ: لا تنقصوا الوزن الذي يوضع في الميزان

وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ
مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ

شرح المفردات

لِلأنام: للخلائق
الأكْمَامِ: أوعية الثمر وهي الطَّلع
والحَبُّ: الحبوب، كالقمح والفول والذُّرة
العَصْفِ: التبن أو ورق الزرع اليابس
الرَّيْحَانُ: كل نبت له رائحة طيبة
آلاء: نِعَم، جمع «أَلَى»
صَلْصَال: طين يابس له صوت عند الضرب عليه
كالفَخَّار: هو الطينُ يُحْرَقُ حتى يتحجر
مارِجٍ: لهب النار الصافي الذي لا دُخانَ فيه
مَرَجَ: أرسلَ
البَحْرَيْنِ: البحر المالح والماء العذب
بَرْزَخٌ: حاجز أرضي
لا يَبْغِيَانِ: لا يختلطان

وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ

شرح المفردات

المَرْجَانُ: كبار اللؤلؤ، وقيل هو الخرز الأحمر

الجَوَارِ: السّفن الجارية

كَالأَعْلَامِ: جمع عَلَم وهو الجبل

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ: كل مَن على الأرض هالك

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ: أي تبقى ذات ربك

ذو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ: صاحب العظمة والذي له الإكرام والفضل على جميع خلقه

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ: يحتاج إليه كل من في السماوات والأرض ويسألونه الرحمة

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ: أي يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ: سنقصد لحسابكم

أَيُّهَا الثَّقَلَانِ: الإنس والجن

تَنْفُذُوا: نفذ، تعني: دخل الشيء وتجاوزه

أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ
﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ
مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ
﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن
ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا
الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ

شرح المفردات

أقطار: النواحي والجوانب

بِسُلْطانٍ: بقوة وقهر

شُوَاظٌ: لهب النار

ونُحَاسٌ: نحاس مذاب، أو دخان بلا لهب

فكانت وَرْدَةً: فصارت حمراء كلون الورد الأحمر

كالدِّهَان: تصير سائلة كالزيت

بسيمَاهُم: بعلامات فيهم وهي: سواد الوجوه وزرقة الأعين

بالنَّوَاصِي: جمع ناصية وهي شعر مقدم الرأس

حَمِيمٍ آنٍ: ماء شديد الحرارة

آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا
مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ

شرح المفردات

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ: ولمن اتّقى الله من عباده فخاف قيامه بين يديه للحساب
أفْنَان: جمع فنن وهو الغصن، وقيل: ألوان من الفاكهة
فُرُشٍ : جمع فراش
بطَائِنُهَا: ما بطن من الثوب
إِسْتَبْرق: الحرير الغليظ
جَنَى الجَنَّتَيْن: ثمر البساتين
دانٍ: قريب من يد المتناول
قاصِرَاتُ الطَّرْفِ: النساء اللاتي قصرن أبصارهن على أزواجهن
لم يَطْمِثْهُنَّ: عذارى لم يتزوجهن أحد من قبل

الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾

مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾

حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾

مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

شرح المفردات

مُدْهَامَّتَانِ: لونها ضارب إلى السواد من شدّة الإخضرار والريّ

نَضَّاخَتَانِ: تفوران بالماء

خَيْرَاتٌ حِسَانٌ: نساء فاضلات الأخلاق حِسان الوجوه

حُور: جمع حوراء ، وهي المرأة البيضاء شديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة

مَقْصُورَاتٌ: قَصَرْن أنفسهن على أزواجهن فلا يُردن غيرهم

رَفْرَفٍ: الفرش والبسط والوسائد

عَبْقَرِيٍّ: الطنافس الموشاة ، وقيل إنها وصف لكل جليل نفيس نادر

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تعرض الدلائل الواضحة على وجود الله من خلال التأمُّل في مخلوقاته، كما تبيّن قدرته العظيمة، وتدبيره المحكم في هذا الكون، وتعدِّدُ نِعَمَهُ التي أسبغها على الإنسان، والتي تستوجب الخضوع له، وشكره على هذه النِعَمِ، وعدم مقابلتها بالجحود والتكذيب.

ثم تندِّد هذه السورة بالمكذبين بنعم الله، مُنذرةً إياهم بسوء المصير، ومبينةً لهم جانباً مما سيلقونه من عذاب يوم القيامة، كما تنوِّه بالمتقين وتبشرهم بحسن العاقبة عارضةً لنا جانباً من أنواع النعيم الذي سينالونه في الآخرة.

يستهل الله هذه السورة بقوله:

﴿الرَّحْمٰن. عَلَّمَ القُرآنَ . خَلَقَ الإنسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾.

﴿الرَّحْمٰن﴾ اسم من أسماء الله، وصفة من صفاته، وهي صيغة للمبالغة مشتقة من الرحمة، ومعناها: ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، والرحمة من الإنسان عطف وحنو، ومن الله إنعام وفضل وإحسان.

ولما كانت هذه السورة تعدِّد آلاء الله على عباده فقد ابتدأت بِأعلى مراتبِ الإنعام مقدِّمةً إياها على سائر النِعَمِ، وهي نعمة القرآن ﴿عَلَّمَ القُرآنَ﴾ فقد علَّم الله محمداً القرآنَ بواسطة الملك جبريل ثم علَّمه محمدٌ لأمته.

وإن في تقديم نعمة تعلم القرآن على سواها من النِعَمِ ما يدل على أنها أعظم شأناً، وأسمى مكانة. حتى أنه قدَّمها على نعمة خلق الإنسان، لأن الإنسان بدون هَدْي القرآن يعيش في تعاسة وبؤس، وصراع مع أخيه الإنسان، وهكذا كان شأن العرب قبل هدْي القرآن، كانوا في صراع قَبَلي، القوي منهم يأكل حقوق الضعيف، وكانوا منغمسين في الفواحش والمُنكرات، أما بعد نزول القرآن، وأخذِهم بهديه فأصبحوا أمة قوية موحَّدة، متحلية بالفضائل

والآداب، واستطاعوا أن يُسيطروا على أقوى الأمم في عصرهم، وينشروا فيها العدل والرحمة.

﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ ﴾ فهو سبحانه أخرج الإنسان من العدم، وسوّاه في أحسن تقويم، وأعطاه من العقل والحواس والمواهب ما عمَّر به الأرض، وسخَّرها لمنفعته، هذه النِعَم تستوجب شكر الإنسان لخالقه، كما تستوجب منه عبادتَه وطاعته.

ومن نِعَمِ الله على الإنسان أنه ﴿ عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ وهو النعمة العظيمة التي تُميِّز الإنسان عن سائر الحيوان. والبيان الذي علَّمه الله للإنسان يشمل تمكين الإنسان من أن يُعبِّرَ عن ما يخالجه من الخواطر والأحاسيس والمشاعر بواسطة الكلام، وتمكينه أيضا من إفهام غيره والفهمِ عنه، وفي هذا المجال نشأت اللغات التي تتضمّن ألفاظها المعاني والمعارف والعلوم.

ولكن لننظر كيف يكون البيان بواسطة النطق، فالنطق عملية عجيبة معقدة، كثيرة المراحل والخطوات والأجهزة، فالمخُّ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق باللفظ المطلوب، وهنا تطرد الرئة قدراً من الهواء المختزن فيها ليمرَّ من الشُعَب إلى القصبة الهوائية، إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التي لا يُقاس بها أوتار أيَّة آلة صوتية صنعها الإنسان، فيصوِّت الهواء في الحنجرة صوتاً تُشكله حسبما يريد العقل، ويشترك مع الحنجرة: اللسان والشفتان والفك والأسنان لصنع الصوت المراد كما يُريده العقل.

ويتابع القرآن فيذكر بعض ما خلقه الله مما يشهد بوجوده وعظمته:

﴿ **الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ . ألاَّ تَطْغَوْا في المِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ** ﴾.

﴿ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ بحسبان: مصدر بمعنى الحساب، أي أن الشمس والقمر يجريان بحساب مقدّر في بروجهما ومنازلهما لمصالح العباد. وإن

في مسيرة الشمس والقمر اللذين لا يخطئان في سيرهما ثانية ولا درجة عن مدارهما، وبُعدهما عن الأرض ما يدلّ على تقدير الله العليم الحكيم، فكل ذلك محسوب حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الكائنات على الأرض. فلو كانت الشمس أقرب الينا من هذا القدر المعلوم، وزادت إشعاعها لنا بمقدار النصف لأصبحنا رماداً منذ زمن بعيد، ولو كانت اقل مما هي عليه وأعطتنا نصف إشعاعها الحالي لكنا تجمّدنا وهلك ما على الأرض من حيوان ونبات. وكذلك القمر لو كان أقرب إلينا مما وضعه الله لكان المد الذي يحدثه من القوة بحيث أن جميع الأراضي التي تحت منسوب المياه كانت تُغمر مرتين بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها.

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ فالسماء ما يقابل الأرض وما علاها، ورفع الله السماء إشارة إلى أنها مرفوعة بقدرته، ولا ممسك لها سواه سبحانه وتعالى، والإشارة إلى السماء لفت الأنظار إلى تناسق هذا الكون، وعظمة القدرة الإلهية التي أبدعته، فهذه السماء تسبح فيها ملايين المجرات، كل مجرة تحتوي على ملايين النجوم المشتعلة، بالإضافة إلى ما فيها من كواكب.

أما قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ المِيزَانَ ﴾ فالميزان هنا المقصود به: العدل، وقد شرعه الله في كل شيء من خلقه بحيث جعله قانوناً عاماً ينتظم به الكون، فكل شيء في الكون خُلِقَ بالعدل والتوازن في تكوين أجزائه بحيث لا يطغى جزء على جزء، فكما أن كل شيء في الكون يسير بحساب دقيق وبميزان عادل، كذلك يريد الله من عباده أن يطبقوا الميزان الدقيق العادل في الأرض.

ومعنى ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا في المِيزَانِ ﴾ أي لا تتجاوزوا العدل في سائر أموركم ومعاملاتكم، أو بمعنى: لا تتلاعبوا في الأوزان. ﴿ وأقيموا الوَزْنَ بِالقِسْطِ ﴾ أي اجعلوا أوزانكم قائمة على العدل والإنصاف، ﴿ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ أي لا تُنقصوا الوزن في مبيعاتكم.

وبعد أن وجَّه القرآن النظر إلى خلق السماء أردف ذلك بتوجيه الأنظار إلى خلق الأرض وما تنبت من صنوف الفاكهة والحبوب.

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ . وَالحَبُّ ذُو العَصْفِ وَالرَّيْحَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

فالله سبحانه خلق الأرض وأوجدها ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ أي للخلائق من إنسان وحيوان، ففيها أصناف الفاكهة، وفيها النخل[1] ﴿ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ وهي الأوعية التي يكون فيها الثمر، وهو الطلع.

كما أن في الأرض أصناف الحبوب كالقمح والشعير والفول والذرة ليقتات منها الإنسان والحيوان. أما ﴿ العَصْف ﴾ فهو غلاف حب القمح وحطامه المعروف باسم التبن، ونحوه في الحبوب الأخرى مما تأكله المواشي. أما ﴿ الرَّيْحَان ﴾ فهو الرزق، وقيل كل نبات له رائحة كالورد والياسمين وما شاكلها

فالله سبحانه امتنَّ على الناس بما خلقه لهم من الفاكهة والنخل والحبوب لغذائهم، والأزهار ليتمتعوا برائحتها الطيبة، وهذه النِعَم تستوجب: شُكر الإنسان لخالقه وعدم الجحود به والكفر بنعمه، ولهذا يعقِّب الله على هذه النعم بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾ والآلاء هي النِعَم، والخطاب في ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ هو للإنس والجن، كما توضح ذلك الآيات التي ستأتي فيما بعد مثل ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ والمراد من تكذيب آلاء الله الكفر بالله جلَّ وعلا، إما بإنكار كون هذه النعم منه سبحانه، وإما بعدم شُكره على هذه النِعَمِ ، لأن الشكر من دلائل الإيمان، كما أن عدم الشكر من علامات الكفر.

---

(١) لقد خصَّ القرآن النخل بالذكر بعد أن عمّم أصناف الفاكهة لما له من فائدة كبيرة لجسم الإنسان فبتحليل التمر كيماوياً وُجد أنه يحتوي على نسبة مرتفعة من السكريات (٧٥ في المائة تقريباً) مما يستفيد الجسم منه في انتاج طاقة عالية وسعر حراري كبير. هذا فضلاً عن أن التمر يحوي أيضاً نسبة عالية من الكالسيوم والحديد والفوسفور التي يحتاج إليها الجسم ومقداراً من حمض النيوكوتينك، الفيتامين الواقي من مرض البلاجرا وفيتاميني (أ)و(ب). ويحتوي على نسبة من البروتينات والدهنيات، وكل هذه المكونات تجعل من البلح غذاء كاملاً.

والجدير بالذكر أن القرآن ردّد هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة تارة عقب كل نعمة يمتن الله بها على عباده، تقريراً لهذه النعمة، وتأكيداً للتذكير بها، ودعوة لشكر خالقها وهو الله سبحانه والاعتراف به وعدم جحوده، وطوراً عقب كل تحذير من الله على عصيانه، ليكون الإنسان متبصِّراً عظمة خالقه فلا يغضبه ولا يخرج عن إرادته خوفاً من عقابه.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: مالي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ما أتيت على قول الله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾ إلاّ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذّب، فلك الحمد.

ويتابع القرآن فيذكر فضل الله على الإنس والجن بنعمة الإيجاد والتكوين:

﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ . وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

فالإنسان هنا أبو البشر آدم الذي انحدر جنس الإنسان من صُلبه، والصلصال هو الطين اليابس غير المحروق، له صوت عند الضرب عليه، فإذا أُحرق فهو الفخار.

أما الجان فهم عالم غير مرئي للناس مخلوقون من نار، وقد ذكر القرآن أنهم خُلقوا من ﴿ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ أي لهب خالص لا دخان فيه من النار، والجن كالبشر مكلفون بالعبادة، منهم الكفار وهم الشياطين الذين يغْوُون الناس ويدفعونهم إلى ارتكاب الشرور والآثام، ومنهم المؤمنون.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان قدرة الله في المظاهر الطبيعية وتسييره لها:

﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

قيل المراد في الآية مشرق الشمس صيفاً وشتاء، ومغرباها كذلك، وكأن المراد بالتثنية مطلعها في أطول يوم من السنة، وفي أقصر يوم، وكذلك المغربان. وقيل المراد مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرباهما وما بينهما من

الموجودات قاطبة، فهو رب الوجود كله.

والشروق والغروب يحصلان من دوران الأرض حول نفسها، هذا الدوران هو في نهاية الدقة بحيث لا يخطىء ثانية من الثواني، فالكرة الأرضية تدور حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة، والآن لنفترض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار، فهذا الدوران بهذه السرعة المعهودة، الذي يترتب عليه شروق الشمس وغروبها هذا الوقت المعلوم يبيّن عظمة وقدرة الله وفضله على الناس، وهو من آلاء الله على خلقه التي لا مجال لتكذيبها.

ثم يوجّه القرآن الأنظار إلى نِعَمِ الله على الإنسان بما سخّر له البحر والأنهار والبحيرات لمنافعه:

﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللؤلؤ والمرجَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فالله سبحانه ﴿ مَرَجَ ﴾ أي أرسل، والبحران هما: الماء المالح المتمثل بالبحار، والماء العذب المتمثل بالأنهار والبحيرات. فهما ﴿ يَلْتَقِيَان ﴾ أي يتجاوران، ويمسُّ أحدهما الآخر، فتصب الأنهار في البحار، ولكن بين الماء المالح والعذب ﴿ بَرْزَخ ﴾ أي حاجز من الأرض ﴿ لا يَبْغِيَان ﴾ أي لا يطغى أحدهما على الآخر، أو لا يتجاوزان حدّيهما بإغراق الناس. ومن الماء المالح والعذب يخرج اللؤلؤ والمرجان.

واللؤلؤ: صغار الدّر، والمرجان: كبار الدرّ، وقيل: هو الخرز الأحمر.

ويرى بعض الباحثين[1] أن الآيات القرآنية تنطبق على محيط الخليج العربي حيث يكثر استخراج اللؤلؤ هناك، وحيث وُجِدَ في الأعماق هناك عيون يندفع منها الماء العذب اندفاعاً قوياً إلى أعلى وسط الماء المالح بحيث تساعده

(١) دكتور محمد متولي- مجلة كلية العلوم الاجتماعية - الرياض- عدد ٢ - ١٩٧٨.

هذه القوة في الاندفاع على تكوين البرزخ المعجزة بين الماء العذب المتدفق وبين الماء المالح ويمنع اختلاطها، وتعرف هذه العيون باسم الكوكبات، ومنها يشرب الغواصون عند فراغ مياه الشرب عندهم.

واللؤلؤ من عجائب ما في البحار، فهو يهبط إلى الأعماق وهو داخل صدف من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد عجيبة النسج تكون كالمصفاة تسمح بدخول الماء والغذاء إلى جوفه، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها، وتحت الشبكة أفواه الحيوان، ولكل فم أربع شفاه، فإذا دخلت ذرة رمل، أو قطعة حصى، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ثم تتجمد مكونة لؤلؤة[1].

ثم ينتقل القرآن الى بيان قدرة الله على الإنسان بالسفن التي ألهمه صنعها هذه السفن التي أصبحت اليوم من دعامة الحضارة حديثة:

﴿وَلَه الجوار المُنْشَآتُ في البحر كالأَعْلَامِ . فَبِأَيِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الجوار: هي السفن. المنشآت: المصنوعات. الأعلام: جمع عَلَم وهو الجبل. فالله سبحانه يشبه السفن بالجبال من حيث الضخامة.

وقفة قصيرة عند وصف القرآن للسفن بالجبال، هذا الوصف لم يظهر على حقيقته إلاّ بعد نزول القرآن بقرون عديدة حين بُنيت السفن العظيمة عابرات المحيطات التي تسع ألوف الركاب، وناقلات النفط التي تحمل آلاف الأطنان، وحاملات الطائرات، وكل هذه بضخامتها تشبه الجبال.

إن وصف السفن بالجبال لهو نبوءة للقرآن يكشفها للأجيال التالية لأنه كلام رب العالمين. فلو كان القرآن من كلام بشر لما وُصفت السفن بهذا الوصف قبل أربعة عشر قرناً - عهد نزول القرآن - حيث لم تكن السفن توحي بهذا الوصف، فلقد كانت السفن آنذاك شراعية صغيرة الحجم ولم تكن من

---

(١) عن كتاب الله والعلم الحديث للاستاذ عبد الرزاق نوفل.

الضخامة لتوصف بالجبال كهذه السفن التي نراها اليوم بما تتصف به من الحجم الهائل والكبر المتزايد الذي يشبه الجبال.

وبعد أن بَيّن القرآن نِعَمَ الله على الإنسان، بيّن بعد ذلك أن مآل كل ما على الأرض هو إلى فناء:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّك ذُو الجَلالِ والإكْرَامِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

فكل ما على الأرض هو هالك إلاّ ذات الله سبحانه، وهذا ما ذكره القرآن أيضاً في موضع آخر ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ ﴾ القصص: ٨٨.

فهو سبحانه ﴿ ذُو الجَلالِ ﴾ أي صاحب العظمة والكبرياء، وهو أيضاً ذو الإكرام، أي أنه يُكرّم عن كل شيء لا يليق به، وقيل صاحب الإكرام لأوليائه.

هذه الآية الكريمة ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ تعلن أهم حقائق الحياة التي يقف الإنسان أمامها خاشعاً مطأطىء الرأس، عاجزاً. فكل شيء في هذه الدنيا مُقبل على زوال، والموت لا يستثني أحداً على وجه الأرض مهما علت مكانته، والخلود والبقاء لله وحده.

هذه الآية توحي بعبادة الله الباقي بعد فناء الخلق، وعدم الاغترار بالدنيا وملذاتها الزائلة.

هذه الآية تقدم أعظم العزاء للذين فقدوا الأحبة، أو أصابهم المرض المضني الميؤوس منه، أو نالتهم الخسارة في الأموال وغيرها، أو يقاسون الظلم والطغيان، فكل شيء في هذه الدنيا مصيره الزوال، والناس جميعاً يتساوون في هذا المصير.

ثم يبيّن القرآن بعد ذلك بأن كل مخلوق مفتقر إلى الله في بقائه واستمرار وجوده:

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ في السَّماوَاتِ وَالأَرْض كُلَّ يَوْمٍ هُو في شَأْنٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فأهل السماوات من ملائكة يسألونه المغفرة والرحمة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة والرحمة، فهو سبحانه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فهو يحيي ويُميت، ويغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويرفع أقواماً، ويضع آخرين، ويُعزّ ويُذل، ويُعطي ويمنع، ويُشفي ويُمرِض، لا يشغله شيء عن شيء.

وبعد أن بيّن القرآن افتقار الخلق إلى خالقهم انتقل إلى تحذير الإنس والجنّ من مغبَّة عصيان ربهم:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الفراغ: هنا القصد إلى الشيء والإقبال عليه، والمعنى: سنقصد لحسابكم، وهنا وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة. وليس هو فراغاً من شغل، لأن الله لا يشغله شيء عن شيء. والثقلان: الإنس والجن، وسمّيا بذلك لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض، أو لأنهما مُثقلان بالذنوب، أو لأنهما أُثقلا بالتكاليف الشرعية.

ثم يوجّه القرآن بعد ذلك الخطاب إلى الإنس والجن مبيّناً عجزهما، وأن قدرتهما محدودة في ملكوت الله.

﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إِن اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ ونُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فمعنى سلطان: المُلْك. وقيل: هو القوة الغالبة التي يتسلط صاحبها على الأمر. وقيل: الحجة.

قيل إن هذه الآيات خطاب للإنس والجن يوم القيامة والمعنى: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من عقاب الله فارين من

عذابه فافعلوا وأنتم لا تقدرون على الخلاص إلاّ بمُلْكٍ وليس لكم مُلْكٌ لأنكم حيثما توجهتم كنتم في ملكوت الله وسلطانه. يصب عليكما نار ونحاس مذاب فلا تقدران على دفع هذا العذاب.

وقيل في تفسير هذه الآيات ما ينقله ابن جرير عن ابن عباس: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموه، لن تعلموه إلاّ بسلطان يعني البينة من الله.

هذا التفسير الأخير يتسع لقبول فكرة غزو الفضاء والوصول إلى القمر وبقية الكواكب الأخرى في مجموعتنا الشمسية والتي حقق الإنسان بعض الإنجازات في ذلك إذ وطئت قدمه أرض القمر واستكشف بواسطة السفن الفضائية بعض أسرار كواكب المريخ وكوكب الزهرة.

ففي قوله تعالى: ﴿ فانْفُذُوا ﴾ إشعار أن باستطاعة الإنسان اختراق بعض نواحي السماء واختراق جوانب الأرض، لكن هذا النفاذ يحتاج إلى سلطان، وهو القوة التي يتسلط صاحبها على الأمر. ففي الأرض تم له ذلك بواسطة اختراع الطائرة واحداث شبكة من الطيران ربطت العالم الأرضي بعضه ببعض.

أما في السماء فالإنجاز العلمي الذي حققه الإنسان فيها لا يزال في البداية، وضعفه واضح، وعجزه مكشوف. فكل الكواكب التي تنتسب إلى المجموعة الشمسية ليست إلاّ ذرات في هذا الكون الفسيح، فعدد النجوم والكواكب يقدر بالبلايين، وأبعاد هذه الكواكب والنجوم مستحيل الوصول إليها، فأبعد الكواكب السيارة وهو «بلوتو» الذي ينتسب للمجموعة الشمسية يستغرق الضوء المنبعث منه إلينا ما بين أربع ساعات وخمس، وسرعة الضوء ١٨٦,٠٠٠ ميل في الثانية مع أن الضوء الآتي من أقرب النجوم يستغرق بين أربع سنوات وخمس وكل نجم هو شمس كشمسنا يدور في فلكه كواكب. لقد استطاع الإنسان بواسطة الصواريخ التي لقوتها واندفاعها تستطيع حمل سفن الفضاء إلى القمر، فالصواريخ هي القوة المبنية على العلم لاستكشاف

بعض أسرار الفضاء.

هذا وإن القرآن استدرك وبين عجز الإنسان وأن قدرته لن تصل إلاّ إلى حدٍّ محدود في غزو الفضاء وهو قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فلا تَنْتَصِرَانِ ﴾ فالإنسان لا يستطيع التوغل كثيراً في الفضاء فهناك نار ومعدن ذائب ودخان، كما أن هناك شهباً ونيازك ومذنبات وأشياء أخرى تحول بينه وبين محاولاته.

ثم ينتقل القرآن إلى استعراض بعض مشاهد القيامة وما يعقب ذلك من مشاهد العذاب للمجرمين:

﴿فإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدِّهَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . هَذِهِ جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

أي فإذا جاء يوم القيامة تصدّعت السماء، واختل نظامها، واحمرَّ لونها ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ اي صارت كلون الوردة، وقد تختلف ألوانها ولكن الأغلب عليها هو اللون الأحمر.

وتصير السماء ﴿ كالدِّهَانِ ﴾ أي كدهن الزيت في الذوبان من شدة الحرارة، ﴿ فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ لأن المذنبين يُعرفون بمظهرهم وهو ما يغشاهم من الكآبة والحزن، أو سواد الوجه وزرقة الأعين[1]، ثم يكون مصيرهم: ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴾ فالملائكة الموكلون بعذاب المجرمين يأخذونهم بنواصيهم: أي بشعور مقدم الرؤوس، كما يأخذونهم بأقدامهم فيقذفونهم في نار جهنم، ثم يُقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: هذه جهنم التي أُخبرتم بها

---

(١) جاء في القرآن: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسودُّ وُجُوهٌ) آل عمران: ١٠٦. وجاء أيضاً: (وَنَحْشُرُ الجرمين يومئذ زُرْقا) والمراد زرقة الأعين.

فكذبتم، إنها حاضرة تشاهدونها عياناً. ثم بعد ذلك ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ فالحميم: هو الشديد الحرارة. أما آن: فهو البالغ في الحرارة أقصاه.

فالمجرمون يترددون بين أمرين: بين نار جهنم فيحرقون بنارها، وبين الماء الحار الذي يصب عليهم، و إذا استغاثوا من النار أُغيثوا بالماء الحار.

ومجيء الآية ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ عقب آيات العذاب للمذنبين لأن آيات العذاب فيها زجر للعصاة ليرتدعوا ويتوبوا، وفي ذلك نعمة لهم تستحق أن لا يُكذِّبوها.

وبعد أن أوضح القرآن عذاب الكفار انتقل إلى وصف نعيم المؤمنين في الآخرة:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان . ذَوَاتَا أَفْنَانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَان . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بطائنها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾.

أي ولمن اتقى الله من عباده فخاف ﴿ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي مقامه بين يديه للحساب يوم القيامة، فأطاعه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، فله ﴿ جنَّتَان﴾ والجنة هي البستان ذو الشجر المثمر. وهاتان الجنتان ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ جمع فنن وهو الغصن، ومن هذه الأغصان تُنشر الظلال وتُجنى الثمار. وفي كل واحدة من الجنتين عين جارية بالماء العذب تجري مياهها بين الشجر، كما أن فيهما صنفين من الفاكهة: صنفاً معروفاً في الدنيا، وصنفاً غريباً عن العباد لم يُعرف. وأهل الجنة ﴿ متكئين﴾ أي جالسين مسندين ظهورهم أو جنوبهم على ﴿ فُرُشٍ ﴾ جمع فراش، وتشمل الأسرّة والوسائد والبسط ﴿ بطائنها من إستبرق﴾ أي البطانة الداخلية من حرير سميك، فإذا كانت

البطانة بهذا الوصف فما بالك بالظواهر؟ ﴿ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ أي وثمر هذين البستانين قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع. وفيهن أي في الفرش ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي نساء حابسات عيونهن على أزوجهن لا ينظرن إلى غيرهم عفافاً وطهراً ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُم وَلاَ جَانٌّ﴾ أي هن عذارى لم يمسهن مس الزوج لزوجته أحد قبل أزواجهن لا من الإنس ولا من الجن. وهن شبيهات بالياقوت والمرجان في حُمرة الوجه وصفاء اللون.

ويبيّن الله سبب هذا النعيم كله بقوله:

﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾.

فكلمة الإحسان في الآية جاءت بمعنيين: الأولى يُراد بها إحسان الإنسان في عمله، وامتثاله لطاعة ربه، وكلمة الإحسان الثانية يُراد بها الجزاء على إحسان الإنسان في دنياه، وهو إحسان الله على المتقين بنعيم الجنات والرضوان من الله. ويكون معنى الآية: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلاّ أن يُحسن إليه في الآخرة.

ومن إحسان المؤمن امتثاله لجميع تعاليم دينه، والنهوض بعبادة ربه على الوجه الأكمل مستشعراً أن الله مُطّلع عليه كما قال النبي ﷺ: «الإحسان أن تَعْبُدَ اللهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

والإحسان بهذا المعنى يتطلّب أن يستشعر المؤمن أنه بحضرة ربه يراقبه في كل صغيرة وكبيرة في السرّ والعلن لا يخفى عليه من أمر عباده خافية، وهذا يستلزم الإخلاص لله والقيام بالعمل الصالح ابتغاء مرضاته، وقد سمى الله كل ما يقدّمه المؤمن في دنياه من عمل صالح: حسنة، يُثاب عليها في الآخرة: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَومَئِذٍ آمِنُون ﴾ النمل: ٨٩.

ويتابع القرآن فيستعرض صورة أخرى من صور النعيم أقل رتبة من النعيم السابق يستحقه أناس أقل درجة في الفضل والإيمان والعمل الصالح:

---

(١) رواه البخاري.

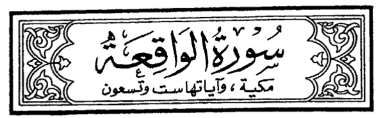
﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَان . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُدْهَامَّتَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ . فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسَانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ ربكما تُكَذِّبَانِ. حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَام. فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُم ولاَ جانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.﴾

فهاتان الجنتان ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي شديدتا الخضرة يميل لونها إلى السواد من الري من الماء، من الدهمة وهي سواد الليل. وفيهما: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوارتان بالماء لا تنقطعان، وفيهما ﴿ فاكِهَةٌ ونَخْلٌ ورُمَّانٌ﴾ والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة لكنهما خُصِّصَا بالذكر لمزيد نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه. كما يوجد فيهما ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أي نساء خيّرات الأخلاق حِسَان الوجوه في أعلى درجات الجمال، فهن ﴿ حُورٌ مَقصُورَاتٌ في الخِيَام ﴾ وحور: جمع حوراء، وهي شديدة بياض الجسد مع شدة بياض العين وسواد الحدقة ومعنى مقصورات: أي مقتصرات مستورات ستر صيانة﴿ فِي الخِيَام ﴾ المراد بها هنا بيوت الجنة.﴿ متكئين على رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أي مستندين على وسائد خضر ﴿عبقري حِسَانٍ﴾ وعبقر: موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن وينسب إليه كل فائق جليل تعجبوا من حذقه أو من جودة صنعه، وكل نادر من فرش أو ثياب أو بسط موشاة. ومعنى حسان: حسنة المنظر.

وبعد أن استعرضت السورة نعم الله في الدنيا والآخرة تختتم بتقديس الخلاق العظيم.

﴿تبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾

تبارك، تأتي بمعنى: تَقَدَّسَ، وكَثُرَ خيره وفضله، فهو سبحانه ذو الجلال، والجليل: العظيم القدر، ووصفه سبحانه بذلك الوصف إما لخلقه كل الأشياء المستدلّ بها على وجوده، او لأنه يُجَلُّ عن الإحاطة به، أو أن يُدرك بالحواس. وهو سبحانه ذو الإكرام أي الخليق بالحمد والشكر والثناء، أو أنه ذو الإكرام لأوليائه وأصفيائه.



بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ

شرح المفردات

وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ: قامت القيامة، والواقعة من أسماء القيامة.

خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ: خافضة للأشقياء رافعة للسعداء.

رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا: حُركت تحريكاً شديداً.

بُسَّتِ الجبَال بَسًّا: فتّتت الجبال تفتيتاً.

هَبَاءً مُنْبَثًّا: غباراً متفرقاً منتشراً.

أزواجاً: أصنافا

والسَّابقون السَّابِقون: هم المسارعون إلى الإيمان والتوبة وأعمال البرّ.

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُون: أي المقربون عند الله الذين نالوا حظوة عنده ورُفعت مراتبهم.

ثُلَّة: جماعة كثيرة من الناس.

﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا

شرح المفردات

الأوّلين: الأمم الماضية.

سُرُر مَوْضُونَة: مقاعد منسوجة من الذهب بإحكام.

مُتَّكئينَ عَليها مُتقابلين: يجلسون ووجوههم متقابلة.

يَطوفُ عَلَيْهم ولْدَانٌ مُخَلَّدون: يخدمهم غلمان يبقون في نضارة الصبا لا يهرمون.

بأَكْوَابٍ: بأقداح كبيرة مستديرة لا عُرى لها.

كَأسٍ: الإناء إذا كان فيه خمر، فإن فرغ فهو قدح أو إناء.

مَعِينٍ: أي من خمر تجري كما تجري عيون الماء على وجه الأرض.

لا يُصَدَّعُونَ: لا يصيبهم صُداع من شربها.

ولا يُنزِفُون: لا تذهب عقولهم بالسكر.

حُورٌ: جمع حَوراء وهي المرأة البيضاء الحسناء.

عِينٌ: جمع عَيناء، وهي الواسعة العينين.

لَغْواً: الباطل والفاحش من الكلام.

تأثيماً: كلاماً فيه إثم.

﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾

شرح المفردات

سِدْر: شجر النبق.

مَخْضُود: منزوع منه الشوك.

طَلْح منضُود: شجر الموز المرصوص المتراكم بالحمل من أسفله إلى أعلاه.

ظِلٍّ ممدُودٍ: ظل دائم باق لا يزول.

ماءٍ مَسْكُوبٍ: ماء جار لا ينقطع، يجري في غير أخدود أو مجرى.

فُرُش مَرْفُوعَةٍ: نساء رفيعات القدر في الحُسن والكمال.

إنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً: أي خلق الله نساء الجنة خلقاً جديداً في غاية الحسن.

أَبْكَاراً: عذارى.

عُرُباً: جمع عَرُوب، وهي المتحببة إلى زوجها.

أَتْرَاباً: متماثلات في السن.

سَمُومٍ: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن.

حَمِيم: الماء الشديد الحرارة.

وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾

شرح المفردات

وَلاَ كَرِيمٍ: ليس فيه خير، أو ليس حسن المنظر.
مُتْرفينَ: متنعمين بالمحرمات، مُقبلين على الشهوات.
الحِنْثِ العَظيمِ: الذنب العظيم، وهو الشرك بالله.
مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ: وقت معلوم، هو يوم القيامة.
شَجَر مِنْ زَقُّوم: شجر قبيح المنظر، كريه الطعم.
الهيم: الإبل العطاش التي لا ترتوي لداء يصيبها.
هذا نُزُلُهُمْ: ما أعد لهم من الجزاء والضيافة.
يَوْمَ الدِّينِ: يوم الجزاء والحساب.
ما تُمْنُونَ: ما تصبون من المنيّ في الأرحام.

ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ

شرح المفردات

قَدَّرْنَا: قضينا، وكتبنا.

بِمَسْبُوقِينَ: عاجزين، مغلوبين.

النَّشْأَةَ الأُولى: أي حين خَلَقكم الله أول مرَّة في الدنيا.

فلولا تَذَكَّرون: فهلاّ تتذكرون ذلك وتتعظون.

مَا تَحرُثونَ: تهيئون الأرض للزراعة وتلقون فيها الحب.

أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ: أأنتم تنبتونه في الأرض وتجعلونه يُخرج حبًّا وثمراً؟

حُطَاماً: ما تكسَّر من الحشيش اليابس.

فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ: فظللتم تتعجبون وتحزنون على ما حلَّ بالزرع.

إنَّا لَمُغْرَمُون: إننا معذبون بذهاب رِزْقنا بدون عوض.

نحنُ مَحْرُومُونَ: حُرمنا الرزق الذي كنا ننتظره.

المُزْن: السُحُب.

أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

شرح المفردات

أُجَاجاً: شديد الملوحة.

فَلَوْلا تَشْكُرُونَ: أي أفلا تشكرون نعمة الله عليكم بإنزاله الماء عذباً من السحاب.

النَّارَ التي تُورُونَ: تقدحون، يقال: أوريت النار إذا قدحتها.

جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً: جعل الله نار الدنيا تذكيراً لنار جهنم.

مَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ: منفعة للمسافرين النازلين في الأرض القفر.

فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيم: قدّس ونزّه ربك العظيم من كل سوء.

في كِتَابٍ مَكْنُون: في كتاب مَصُون محفوظ عن الباطل.

مُدْهِنُون: مكذّبون، منافقون.

تَجْعَلُون رِزْقَكُمْ: تجعلون شُكركم على ما رزقكم الله وأنعم عليكم.

أنَكُم تُكَذِّبونَ: تكذبون بنعمة الله، فتضعون التكذيب موضع الشكر.

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

شرح المفردات

بَلَغَتِ الْحُلْقومَ: بلغت الروح الحلق (القصبة الهوائية) وذلك عند احتضار الميت.

تَنْظُرُونَ: تنظرون إلى المحتضر ولا تستطيعون فعل شيء له.

غير مَدِينينَ: غير مجزيين ومحاسبين على أعمالكم.

تَرجعُونَهَا: تعيدون الروح إلى الجسد بعدما بلغت الحلقوم.

الْمُقَرَّبينَ: السابقين في الإيمان والعمل الصالح.

رَوْحٌ: راحة، وقيل رحمة.

رَيْحَانٌ: الرزق في الجنة.

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ: فضيافتهم من ماء شديد الحرارة.

تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ: دخول النار ومقاساة عذابها.

اليَقين: هو الحق، وقد اقتنع به الإنسان بما لا مجال للشك فيه.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

ايضـاح و دروس

القضية الأساسية التي تعالجها هذه السورة، هي قضية الحياة الآخرة التي تأتي بعد الموت، والدلائل العقلية على حدوثها، وأحوال الناس فيها.

هذه الحياة الآخرة يكون أول بدئها يوم القيامة حيث يشاهد انفراط هذا الكون، وقيام الناس من قبورهم أحياء للحساب على أعمالهم، ثم يُساقون إما إلى نعيم أو إلى عذاب.

تبدأ هذه السورة بوصف يوم القيامة، وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن غيره من الأيام، ففيه تتبدل أقدار الناس وأوضاع الأرض. وقد سمى الله القيامة: الواقعة، للإيذان بتحقق وقوعها، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد. يقول تعالى:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَت هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾.

فإذا قامت القيامة لا تكون نفس مكذِّبة بوقوعها، وهي في وقوعها خافضة لأقوام في جهنم، رافعة لأقوام آخرين إلى الجنة. ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾ فالأرض يومذاك تُزلزل وتُحرك تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء ﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا﴾ أي والجبال تتفتت تفتتاً ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً﴾ تصير غباراً ﴿منبثًّا﴾ متفرقاً منتشراً.

ثم يبين القرآن بعد ذلك مراتب الناس وأحوالهم يومذاك:

﴿وكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً . فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ . والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ المُقَرَّبُونَ . في جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾.

أي سيكون الناس يوم القيامة أصنافاً ثلاثة، منهم صنفان في الجنة هما أصحاب الميمنة، والسابقون، والصنف الثالث يكون في النار وهم أصحاب المشأمة. والميمنة ناحية اليمين، وتعني في اللغة اليُمن والسعادة، ولذلك سمّى القرآن أهل الجنة بـ﴿ أصحَاب اليمين ﴾ و﴿ أصْحَاب الْمَيْمَنَة ﴾ لأنهم يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم.

أما الذين كفروا واستحقوا العذاب فيأخذون كتب أعمالهم بشمائلهم، وهم الذين سماهم الله ﴿ أصْحَاب الشِّمال ﴾ و﴿ أصْحَاب المشْأَمَة ﴾، والمشأمة ناحية الشمال من الشؤم الذي هو ضد اليُمن.

والاستفهام بحرف «ما» عند ذكر أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، للتعجب من حالهم، فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال.

أما الصنف الآخر وهم السعداء في الآخرة فهم ﴿ السَّابِقُون السَّابِقُون ﴾ قيل: هم الذين سبقوا غيرهم إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تَوانٍ، وقيل: هم السابقون إلى الهجرة والجهاد، وإلى التوبة وأعمال البرّ ﴿أُولَئِكَ المقَرَّبُون﴾ أي أولئك الذين ينالون حظوة ومكانة عند الله. والمقَرَّبون هم: ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ، وقليل مِنَ الآخرين ﴾ والثلة هي الجماعة الكثيرة، فالمراد بالأولين: الأمم الماضية الذين سبقوا عهد النبي ﷺ، والمراد بالآخرين أمة محمد ﷺ، وقيل: إن الأولين هم أصحاب رسول الله، والآخرين: هم التابعون لهم بإحسان ممن جاءوا بعدهم على مرّ العصور.

ويتابع القرآن فيذكر ما أعد لهؤلاء السابقين من نعيم في الجنة:

﴿ على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ . مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَباريقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ. . وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يتخيَّرون . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ . لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً . إلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾.

فالسابقون هم في الجنة على مقاعد ﴿ مَوْضُونَةٍ﴾ أي منسوجة من الذهب، ويجلسون متقابلين وجهاً لوجه متساوين في الرُّتب، ويدور حولهم لخدمتهم ﴿ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون ﴾ أي لا يهرمون ولا يتغيرون بل يظلون في نضارة الصبا، وهؤلاء الولدان يحملون الأكواب والأباريق و﴿كَأْسٍ ﴾ وهو الإناء إذا كان مملوءاً بالخمر ﴿ من معين﴾ أي من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض، والمعين هو الماء الجاري الظاهر. ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ فهذه الخمر لا تسبب الصداع للرأس كخمر الدنيا ﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ ﴾ ولا يسكرون بشربها فتذهب بعقولهم. كما يُقَدِّم هؤلاء الوِلْدَان للمقرَّبين ألوان الفاكهة فيختارون منها ما تميل إليه نفوسهم، كما يُقدمون لهم أنواعاً من لحم الطير فيأخذون منها ما يشتهون.

ويقوم على إيناس هؤلاء المقربين ﴿ حُورٌ عِين ﴾ وحور: جمع حوراء، وهي المرأة البيضاء شديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة، وعين: جمع عيناء وهي الحسناء الواسعة العينين ﴿ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكْنُون ﴾ كأنهن اللؤلؤ المحفوظ في الأصداف في النقاء والصفاء ﴿ جَزَاءً بِمَا كانوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي هذا العطاء الإلهي هو مكافأة لهم على ما قدَّموه في دنياهم من عمل صالح ﴿ لا يَسْمَعُون فِيهَا لَغْواً ﴾ فهم لا يسمعون في الجنة كلاماً قبيحاً باطلاً ﴿ وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ ولا كلاماً فيه إثم أو كذب ﴿ إلاّ قيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ أي سلام يصل من الله تعالى إليهم، ويُسلِّم بعضهم على بعض سلام محبة واطمئنان، كما تسلِّم عليهم الملائكة.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما أعد الله من نعيم لأصحاب اليمين الذين هم دون [السابقون] في الدرجة والرتبة:

﴿ وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ . في سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لا مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً . لأَصْحَابِ اليَمِينِ . ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾.

فأصحاب اليمين في الجنة بين أشجار وريقة ظليلة من أشجار (السدر) وهو

شجر النبق، ولكنه ﴿ مَخْضُود ﴾ أي نُزع وقُطع شوكه. ولهم في الجنة ﴿ وطَلْحٍ مَنْضُود ﴾ وهو شجر الموز المتراكم بالحمل من أسفله إلى أعلاه، ﴿ وظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ أي ظل دائم لا يزول، ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ وماء جار دائم ينصب من العيون ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ فهذه الفاكهة لا تنقطع كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الفصول ولا يُحال بينهم وبينها أو يُمنعون من تناولها. ولأهل الجنة ﴿ فُرُش مَرْفُوعَة ﴾ أي يجلسون على فُرُشٍ وثيرة عالية القدر والرتبة. وقيل المراد بالفرش: نساء رفيعات القدر في الحسن والكمال. ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ أي خلق الله نساء الجنة خلقاً جديداً في غاية الحسن ﴿ فَجَعَلْنَاهن أَبْكَاراً ﴾ أي جعلهن الله عذارى ﴿ عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ أي متحببات إلى أزواجهن، وجميعهن في عمر واحد. وكل هذا النعيم أعدَّه الله ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ وهم كثيرون سواء من الأمم السابقة أو من الأمم المتأخرة.

وبعد أن ذكر القرآن أحوال أهل النعيم انتقل إلى ذكر أحوال أهل الشقاء في الآخرة:

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لا بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ . إِنَهُمْ كانوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وكَانُوا يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العَظِيمِ . وكَانوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آباؤُنَا الأَوَّلُونَ . قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾.

فأصحاب الشمال تلفحهم ريح حارة تدخل مسام البدن، وهي التي تسمى ﴿ سموم ﴾ وإذا احتاجوا إلى ماء يبل ظمأهم فماؤهم متناهٍ في الحرارة وهو المسمى ﴿ حميم ﴾ ولهم أيضاً ﴿ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم ﴾ أي ظل شديد السواد وهو دخان جهنم، وتسميته ظِلاً على سبيل التهكم، وهذا الظل ﴿ لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ أي لا بارد كسائر الظلال ولا نافع لمن يأوي إليه، ولا هو حسن المنظر كظلال أهل الجنة.

لقد استحقوا العذاب للأمور الآتية: أولاً: لأنهم كانوا قبل هذا العذاب

﴿ مُتْرَفِينَ ﴾، والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش، وهو المتنعّم والمتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها. فالمترفون هم أشد الناس انزلاقاً في الخطايا والبعد عن طاعة الله، كما أنهم ظالمون لمجتمعهم، فاستئثار الأغنياء بأموالهم وإنفاقهم له في وجوه الترف هو ظلم للفقير وإهدار للمال في غير خير المجتمع.

ثانياً: إنهم كانوا ﴿ يُصِرُّون عَلَى الحِنْثِ العَظِيمِ ﴾ أي كانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله.

ثالثاً: إنهم كانوا ينكرون أن يُبعثوا أحياء بعد الموت للحساب، كما كانوا يستبعدون أن يُبعث آباؤهم وأجدادهم أيضاً بعد إذ صاروا أجساداً بالية وعظاماً نخرة. ونكرانهم للآخرة يجعلهم في حِلٍّ من اقتراف كل المنكرات، لأنه لا حساب ولا عقاب على أعمالهم حسب زعمهم. والله يخاطب رسوله بأن يجيبهم على إنكارهم للبعث: قل إن الأولين من الأمم السابقة، والآخرين من الأمم اللاحقة ﴿ لَمَجْموعُون إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ وهذا اليوم المعلوم هو يوم القيامة الذي جعله الله ميقاتاً لانتهاء الدنيا وابتداء الحياة الثانية.

ويتابع القرآن وصف عذاب أهل الشمال في الآخرة:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المُكَذِّبونَ . لآكلون مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فمالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحَمِيمِ . فَشَارِبُون شُرْبَ الهِيمِ . هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾.

أي إنكم أيها الضالون عن هدى الإسلام المكذّبون بالبعث وبما جاء به الرسول عن ربه أعد الله لكم في جهنم شجراً لا نظير له في الدنيا اسمه: الزقّوم، ثمره كأنه رؤوس الشياطين في قُبح منظره وبشاعته، ومع هذا فإنكم لآكلون من ثمر هذا الشجر الكريه الطعم، ومالئون منه بطونكم مكرهين لما يلحقكم من شدة الجوع، ثم إنكم لشاربون عقب أكله من الماء الحار. وشُربكم هو ﴿ شُرْب الهِيم ﴾ أي شرب الإبل العطاش التي لا تُروى لداء يصيبها ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّين ﴾ والنُزُل ما يهيأ للضيف أول قدومه من التكرمة، وتسمية ألوان العذاب نُزُلاً

تهكّم بهم وسخرية منهم. و﴿يوم الدين﴾ هو يوم الجزاء.

وبعد أن ذكرت السورة لنا عرضاً عن وقائع الآخرة انتقلت إلى ترسيخ الإيمان في الإنسان، موجهةً أنظارَه إلى بعض مظاهر قدرة الله في مخلوقاته التي هي على مرأى بصره، ولكن لطول أُلفته لها غفل عن مواضع الإعجاز فيها، وعن عظمة القدرة الإلهية المبدعة لها. فمن مظاهر القدرة الإلهية: خلق الإنسان:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُون﴾.

ويلاحظ في هذه الآية أن الخطاب للناس فيه تلطف ورفق بالنفوس لتقبل على الإيمان بفطرتها، وإذا كان أمر الخلق مشاهَداً لدى الناس يرونه كل ساعة فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ﴿فَلَوْلاَ تُصَدِّقُون﴾ وقيل: المراد هنا التصديق بالبعث، فالله الذي خلق الإنسان ابتداءً على هذه الأرض قادر على إعادة خلقه حياً يوم القيامة للحساب والمجازاة.

ومن مظاهر القدرة الإلهية خلق منيّ الإنسان:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُم تُخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾.

هذا النص القرآني ظهر إعجازه في العصر الحديث بعد اختراع التلسكوب الألكتروني، ووجود التحاليل الطبية الدقيقة، فقد تبين: إن المنيّ الذي يقذفه الرجل في رحم المرأة يحتوي على ١٠٠ مليون حيوان مَنَويّ في السنتمتر المكعب، وأحد هذه الحيوانات المنوية هو الذي يُلقح بويضة الأنثى عند الإخصاب، وهنا يبدأ تكوين الإنسان. وبعد تلقيح بويضة الأنثى تنقسم البويضة تباعاً إلى مجموعة خلايا تبلغ ملايين الملايين، كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن المجموعات الأخرى، فهذه خلايا عظام، وهذه خلايا أعصاب، وهذه خلايا لعمل عين، وهذه خلايا لعمل أذن، الخ... وكل من هذه الخلايا تتوجه إلى مكان عملها إلى أن تصبح بمجموعها بشراً سويًّا، فتبارك الله أحسن الخالقين. هذا مع العلم أن الإنسان عندما

يدرس علم وظائف الأعضاء ونمو الإنسان وتكوينه يجد أن كل خلية من خلايا الجسم- دون استثناء - تعرف الدور الذي تلعبه في سبيل تحقيق سلامة الجسم كله.

والسؤال المطروح هنا: من خلق هذا المنيّ الذي هو مصدر تكوين الإنسان ومنه يحصل التناسل؟..

هنالك ثلاثة افتراضات: الافتراض الأول أن المنيّ مِنْ خَلْقِ الإنسان، وهذا ما عرضه القرآن الكريم ﴿ أَأَنْتُم تَخْلُقُونَهُ ﴾ وهذا استفهام إنكاري توبيخي أي ليس الأمر كذلك ولا يجرؤ أحد على قوله.

الافتراض الثاني: هو أن ذلك حصل بمحض المصادفة[1].

الافتراض الثالث: أن ذلك مِنْ صُنْع خالق حكيم، وهو ما ذكره القرآن ﴿ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُون ﴾.

فالافتراض الأول والثاني يرفضها العقل بداهة ويرفضها العلم والواقع، فلم يبق الافتراض الأخير المقبول وهو: أن المنيّ من صنع خالق حكيم وهو الله سبحانه.

---

(١) يقول الدكتور أدوين فاست، عالم الطبيعة: وإذا نظرنا إلى الكائنات الحية الراقية فإننا نرى: أن من بينها ما لديه من الذكاء ما يجعله قادراً على التخطيط والابتكار والقيام بأعمال تقرب من حد الإعجاز وتحاول أن تتغلب على القوانين الطبيعية. فإذا تصورنا إن كل ذلك يتم بمحض المصادفة التي تجعل الجزئيات تجتمع بصورة معينة لكي تكوّن ذرات يتآلف بعضها مع بعض لكي تكوّن أجساماً تقوم بدورها بالتكاثر، وأداء سائر وظائف الحياة ويكون لها عقل وتفكير، دون أن يكون وراء كل ذلك إله مدبّر هو الذي خلق فصور فأبدع، فإن ذلك لا يقبله عقل أو يتصوره فكر. وحتى إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أخذنا بفرض مستحيل من الوجهة العلمية، وطرحنا وراء ظهورنا فرضاً منطقياً بسيطاً ألا وهو وجود الله الذي أنشأ هذا الكون وبدأه بقدرته، فالله هو المبدىء. (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم).

ثم يتابع القرآن فيذكر مصير الإنسان بعد هذه الحياة:

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموتَ ومَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ في مَا لاَ تَعْلَمُون . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾.

فالله سبحانه يقول: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ ﴾ أي نحن قسمنا الموت بين الناس وقضينا به، وحدّدنا موت كل واحد بوقت معين لا يتجاوزه، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِين ﴾ بعاجزين ﴿ عَلَى أَن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُم ﴾ أي نهلكم ونأتي بخلق جديد يكونون أطوع لنا منكم ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ في مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ننشئكم خلقاً جديداً في صفات لا تعلمونها وعلى غير صوركم في الدنيا. ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى ﴾ أي ولقد علمتم أن الله أنشأكم وخلقكم في الحياة الدنيا من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً ﴿ فلولا تَذَكَّرُون ﴾ فهلاّ تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم أحياء كما كان قادراً على خلقكم أول مرة.

ثم يبين القرآن مظهراً آخر من قدرة الله وهي إنباته للزرع الذي به قِوام حياة الإنسان والحيوان:

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾.

هذا النبات الذي ينبت ويُؤتي ثماره، ما دوركم فيه أيها الناس؟ إنكم تحرثون الأرض، والحرث في اللغة: إلقاء البذر في الأرض وتهيئتها للزرع، ثم تأخذ يد القدرة الإلهية في عملها المعجز، فلا يكفي أن تتوفر: أرض وضوء ومواد كيماوية وماء وهواء لكي ينمو النبات، إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقدة، والتي تعمل معاً في توافق عجيب، ثم تنتج البذور والحبوب نباتاً شبيهاً بالنبات الذي حصلت منه الحبوب والبذور السابقة بنوعيته مع وراثة صفاته، فإذا حبة القمح من نوع معين تصبح سنبلة تحمل الحب الكثير من ذلك النوع، وإذا النواة تصبح شجرة كالشجرة السابقة المأخوذة منها

النواة[1]

وما أكثر الحالات التي لا ينمو فيها النبات رغم ما بُذل فيه من مشقة وجهد، فالمطر قد يشح، وقد تهب رياح شديدة البرودة، أو شديدة الحرارة، أو تأتي آفات زراعية تقضي على النبات والثمر، ولهذا يقول الله سبحانه ممتناً على الإنسان: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾، وليس معنى الزرع كما هو متبادر في أذهان البعض من إلقاء البذور في الأرض، فالزرع في اللغة: الإنبات، والمعنى: أأنتم تنبتون الحب، أم نحن الذي ننبته فيخرج منه الحب والثمر والنبات.

ثم يقول سبحانه: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً﴾ أي لو شئنا لجعلنا النبات هشيماً متكسّراً متفتتاً ﴿فَظَلْتُم تَفَكَّهُون﴾ تفكّه: تعجب أو تندم، أي فظللتم تتعجبون من سوء حاله بعد أن شاهدتموه على أحسن ما يكون، أو تندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه من غير حصول نفع ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ والمغرم هو الذي ذهب ماله بغير عوض، وقيل بمعنى العذاب، أي تقولون: نحنُ مُعذبون وخاسرون بسبب ما حلَّ بنا، وتضيفون قولكم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرومونَ﴾ أي حُرِمنا الرزق الذي كنا ننتظره.

ويتابع القرآن فيذكر مظهراً آخر من قدرة الله وفضله على الناس بالماء الذي ينزله لهم من السماء:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الذي تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نشاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) يقول الدكتور لستر جون زمرمان أستاذ الزراعة بكلية جوشن: « فمن الذي قدر وأوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكم في وراثة الصفات وفي نمو النبات؟ وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيداً وأكبر عمقاً، ومن أين جاءت النباتات الأولى؟ أو بعبارة أخرى كيف خُلق النبات الأول؟ ونحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها، أو نشأت هكذا بمحض المصادفة، ولا بد لنا من البحث عن خالق مبدع، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا » (نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم).

فالله يخاطب الناس بقوله: أفرأيتم الماء العذب الذي تشربونه، أأنتم أنزلتموه من المزن[1] أم نحن منزلوه لكم. ﴿لَو نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً﴾ أي مالحاً لا يستساغ في شرب ولا يُفيد زرعاً ﴿فَلَوْلاَ تَشْكُرُون﴾ فهلاَّ تشكرون الله على نعمه الجليلة عليكم.

وأخيراً يذكر القرآن فضل الله على الإنسان بحصوله على النار من الشجر:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ التي تُورُون . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أم نَحْنُ الْمُنْشِئُون . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ . فَسَبِّح بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾.

فالنار التي استخرجها الإنسان تختزن حرارة الشمس، وما الفحم الحجري من حيث مصدره إلاّ غابات كثيفة طُمرت في الأرض بفعل الزلازل، وتحجرّت بمرور الزمن الطويل، فيد القدرة الإلهية جعلت الطاقة الشمسية مختزنة في الأشجار لينتفع بها الإنسان. وهذه النار يصفها القرآن: ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾ أي تذكيراً لنار جهنم عند رؤيتها، وهي أيضاً: ﴿وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ[2]﴾ أي منفعة للمسافرين. فالمسافرون قديماً كانوا يجتازون المسافات البعيدة بواسطة الدواب، وكانت هناك محطات للاستراحة في الأراضي المقفرة، فيوقدون النار للإضاءة في الليل ويتدفأون بها، ويطهون عليها طعامهم إلى غير ذلك.

وبعد تعداد نعمه تعالى يأتي الأمر بتسبيح الخالق العظيم: ﴿فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيم﴾ أي نزّه ربَّك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص، وقل سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخّرها لنا بحكمته، ما أعظم شأنه.

---

(١) المزن هي السحب الممطرة، وعملية الأمطار تتطلب توفر ظروف خاصة لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان أو يوفرها صناعياً مثل هبوب تيار بارد فوق آخر ساخن أو حالات عدم الاستقرار في الجو. وقد حاول الإنسان استمطار السحب صناعياً إلاّ أن هذه المحاولات لا تزال مجرد تجارب على أن الثابت علمياً أن نجاح هذه التجارب كان على نطاق ضيق جداً مع وجوب توفر بعض الظروف الملائمة طبيعياً. (المنتخب في تفسير القرآن).

(١) المقوين: الذين ينزلون بالقواء وهي الأرض القفر كالمسافرين.

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه الأنظار إلى النجوم السابحة في الفضاء، وكان توجيهه للنظر إليها متمثلاً بالقسم بمواقعها، والقرآن لا يقسم بشيء إلاّ تنويهاً بأهميته، وللتأمل فيه تأملاً يظهر إبداع الخالق جل وعلا، قال تعالى:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُون عَظِيمٌ ﴾.

ومواقع النجوم هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها. والنفي في القسم بقوله سبحانه: ﴿ لا أقسم ﴾ هو لتأكيد القسم أو أن الأمر هو من العِظَم بحيث لا يحتاج إلى قسم.

والأمر الملفت للنظر هو قوله تعالى بعد القسم بمواقع النجوم: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُون عَظِيمٌ ﴾ أي لو علمتم حقيقة النجوم ومواقعها، لرأيتم أن القسم بها هو قسم عظيم.

لقد نزل القرآن منذ أربعة عشر قرناً وخاطب العرب والعالم بهذا القسم العظيم في وقت لم يكن الإنسان قد اخترع المنظار (التلسكوب) ولم يكن يعلم من حقائق النجوم من حيث العدد، والحجم، والبعد، شيئاً يُذكر، ولكن اليوم بعد اختراع المناظير الضخمة، وتطور علم الفلك تبدت للعالم عظمة الآية القرآنية التي نحن بصددها[1].

---

(١) قبل اختراع المناظير الضخمة كان عدد النجوم التي تتراءى لنا من مجموعتنا النجمية التي تسمى «درب التبانة» سواء منها التي تظهر في نصف الكرة الشمالي، أو النصف الكرة الجنوبي لا يزيد على ستة الآف، ولكن بعد اختراع المناظير الضخمة فإن الموقف تغير تماماً، فالعالم الفلكي «شابيلي» يقدر عددها بـ ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم، وقدّر عدد المجرات بما يزيد على ١٠٠ مليون مجرة كل مجرة تحتوي على ملايين النجوم. وأقصى ما توصلت إليه المراصد من رؤية مجموعات من النجوم تبعد عنا بمدى ألفي مليون سنة ضوئية. والشمس هي نجم كسائر النجوم وهي تمثل نجماً متوسط الحجم، وهي إن تراءت لنا نجماً عظيماً فما ذلك إلاّ لقربها منا، وهناك نجوم اكبر من الشمس بملايين المرات. وقد تبين أن مجموعتنا النجمية تدور ببطء حول محورها المركزي وكذلك الجاميع النجمية الأخرى في حالة دوران متشابهة.

فهذه البلايين من النجوم ومواقعها في السماء، وتوزيعها توزيعاً منتظماً، وتحركاتها وفق قانون معلوم بحيث لا تصطدم ببعضها لأعظم برهان على وجود الله ليس بعده برهان.

أمام هذه الحقائق عن مواقع النجوم التي أقسم الله بها، وأمام قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عظيم ﴾ لا نملك إلا أن نقف بخشوع وإجلال أمام روعة هذا النص القرآني الذي يشهد أنه وحي إلهي.

وبعد ذكر القسم العظيم الذي أشرنا إلى عظمته بما كشف عنه العلم، يأتي المقسم عليه وهو القرآن الكريم، والقسم العظيم لا يكون إلاّ للشيء العظيم:

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . في كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لا يَمَسُّه إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾.

فهذا القرآن هو ﴿ كريم ﴾ ولفظ الكريم اسم جامع لما يُحمد، والقرآن يُحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة، ولما فيه من صلاح للبشر. والمراد من قوله تعالى: ﴿ في كِتَابٍ مَكْنُون ﴾ أي في كتاب محفوظ مصُونَ من التغيير والتبديل. وهذا القرآن الكريم ﴿ لا يَمَسُّهُ إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قيل هم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب، وفي هذا رد على مزاعم المشركين بأن هذا القرآن تنزلت به الشياطين. وقيل: لا يجد نفعه وبركته إلاّ المطهرون، أي المؤمنون، وقيل: لا يمسّه إلاّ المطهرون من الجنابة، أما مسّه على غير وضوء فقد اختلف في ذلك فأجاز البعض إذا كان المس للتعلم ومنع البعض الآخر.

﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فهذا القرآن منزل من عند رب العالمين، وهو الحق الذي لا ريب فيه.

وبعد كل ما تقدَّم من الآيات التي توجهت لمنكري البعث تارة بالتهويل وتارة بالإرشاد تعود الآيات لتذكّر منكري البعث باللحظة الحاسمة بين الموت والحياة، والموت هو أكبر قاهر للإنسان يقضي على غروره وعنفوانه، وهو أهم باعث للإيمان بالخالق، فأمام رهبة الموت تتفجر ينابيع الإيمان في النفس، وهذا

ما قصده القرآن هنا إذ يذكِّرُ منكري البعث برهبة الموت:

﴿ أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ . فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنْتُم حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

﴿ أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ ﴾ الحديث المراد به هنا القرآن ﴿ أَنْتُم مُدْهِنُونَ ﴾ أي مكذبون، وقيل متهاونون به غير آخذين به مأخذ الجد ﴿ وَتَجْعَلُون رِزْقَكُمْ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تجعلون الشكر على ما رزقكم الله أن تكذبوا بنعمه عليكم فتضعون التكذيب موضع الشكر والإيمان ﴿ فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ﴾ فهلا إذا بلغت روح الإنسان الحلقوم عند الموت وشارفت الخروج من جسده ﴿ وَأَنْتُم حِينَئِذٍ تَنْظُرونَ ﴾ وأنتم حينئذ حول المحتضر تنظرون إليه وتحرصون على إنقاذه ولكن لا تستطيعون دفع الموت عنه، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أي وربكم أقرب إلى المحتضر من أهله بعلمه وقدرته ﴿ وَلَكِنْ لا تُبْصرون ﴾ أي لا تدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد[1].

وفي هذا الجو الرهيب تأتي الآيات التالية مفحمة قاصمة لكل جدال: ﴿ فَلَوْلا إنْ كُنْتُم غَيْرَ مَدِينين ﴾ فهنا خطاب للمنكرين بالبعث يقول الله لهم: فهلا إن كنتم غير مربوبين وغير مملوكين لله، أو غير محاسبين ومجزيين على أعمالكم ﴿ تَرْجِعُونَهَا إنْ كُنْتُم صَادِقين ﴾ أي فأَرجعوا الروح وقد بلغت الحلقوم إلى صاحبها حتى لا تذهب إلى ما ينتظرها من حساب إن كنتم صادقين في أنكم غير مربوبين وغير مملوكين لله، ولكن هيهات أن يرجعوا الروح إلى صاحبها؛ إذن فليعلموا أن الأمر بيد الله وحده وليؤمنوا به وليخضعوا له.

ثم تختتم السورة مشيرة إلى مصير الإنسان بعد الموت، وفيها تذكير خاطف

---

(١) حبل الوريد: عرق في أعلى الرقبة يوصل الدم إلى الرأس.

بأصناف الناس الثلاثة يوم القيامة الذين فُصِّلت مراتبهم في مطلع السورة:

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾.

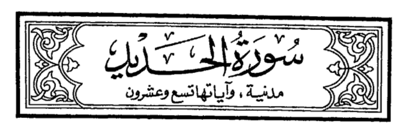
فإذا كان الميت من المقربين الذين سبق ذكرهم – وهم السابقون إلى الإيمان والعمل الصالح – فله ﴿ رَوْحٌ ﴾ أي راحة من الدنيا، أو رحمة من الله، أو فرح بما ينتظره من نعيم، وله أيضاً ﴿ رَيْحانٌ ﴾ أي رزق في الجنة ﴿ وَجَنَّةُ نعيم ﴾ أي بستان ذو تنعم.

وأما إن كان الميت من أصحاب اليمين الذين سبق ذكرهم ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أي أنهم يدعون لك يا محمد ويسلمون عليك، وقيل: سلام لك يا صاحب اليمين من اخوانك أصحاب اليمين.

وأما إن كان من المكذبين بالبعث والقرآن ومن الضالين عن الهدى ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي تقدم ضيافة له: ماء قد تناهت حرارته، فهو شرابه، ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي دخول النار ليقاسي ألوان العذاب فيها.

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي أن الذي ذكره الله في هذه السورة لهو الحق الثابت الذي لا يداخله شك.

كما تجيء الآية الأخيرة ﴿ فَسَبِّح باسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيم ﴾ مذكرة بما مرَّ في ثنايا السورة من الآيات الباهرة الدالة على عظمة الخالق المبدع، والمعنى: نزه الله العظيم عمَّا يصفونه من الأباطيل، وما يتفوهون به من الأضاليل.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ

شرح المفردات

سَبَّحَ لِلَّهِ: نَزَّهَ اللهَ عَن السّوء وَمَجَّدَه.

العَزِيزُ: القويّ الغالب الذي لا يُنازعه في مُلكه شيء.

الحكيم: الذي يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب.

الأوّل: السابق في الوجود جميع الموجودات، فليس قبله شيء.

الآخِرُ: الباقي بعد فناء الخلق، وليس لوجوده نهاية.

الظاهِرُ: الظاهر للعقول بالأدلّة والبراهين الدالة على وجوده.

البَاطِنُ: الذي لا تُدركه الأبصار، ولا تصل العقول إلى معرفة كُنْهِ ذاته.

اسْتَوى عَلَى العَرْش: إستولى على مَلكوت السماوات والأرض بالتدبير والتصرف.

ما يَلِجُ في الأرض: ما يدخل فيها من البذور والمياه والكنوز والموتى.

وَمَا يَخْرجُ مِنهَا: من نبات ومعادن وغيرها.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

شرح المفردات

وما يَعْرجُ فيها: وما يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد.

وهو مَعَكُمْ: وهو معكم بعلمه وتدبيره.

يُولجُ الليْلَ في النهار: الولوج: الدخول، أي يُدخل ظُلمة الليل لتحل محل ضوء النهار.

وَيُولجُ النهار في الليل: يُدخل ضوء النهار ليحل محل ظلمة الليل.

جَعَلَكُم مُسْتَخلفين فيه: جعلكم خلفاءه في التصرف في الأموال.

وَمَالَكُمْ لا تُؤمِنونَ بالله: وأي عُذْرٍ لكم في عدم الإيمان بالله.

أَخَذَ ميثاقَكُم: أخذ عليكم العهد بالإيمان.

عَبْدِهِ: أي محمد ﷺ.

آياتٍ بيِّنَاتٍ: القرآن الكريم.

مِنَ الظُّلُمَات إلى النُّور: من ظُلمات الكفر إلى نور الإيمان.

إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا
تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ
أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ
الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم
بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ

شرح المفردات

ومالكم ألّا تنفقوا: وأي عُذْرٍ لكم في أن لا تُنفقوا.

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض: الله يرث كل شيء فيها ولا يَبْقى لأحد مال ولا مُلك.

قَبْلِ الفَتْحِ: قبل فتح مكة.

يُقْرِضُ اللهَ: ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه.

حَسَناً: يحتسب أجره عند الله.

أجْرٌ كَرِيمٌ: هو الجنة.

بُشْراكم: البشرى هي الخبر السار.

خَالِدينَ فيها: ماكثين فيها أبداً.

لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ

شرح المفردات

انظُرُونا: إنتظرونا أيها المؤمنون.
نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ: نستضيء بنوركم، أو نُصِبْ منه.
ارجِعوا وَرَاءكم: إرجعوا إلى الدنيا فاعملوا فيها أعمالاً صالحة.
فالتَمِسُوا نُوراً: فاطلبوا النور بالإيمان والعمل الصالح.
فَضُرِبَ بينهم بِسورٍ: فأُقيم بين المؤمنين والكافرين حاجز.
بَاطِنُهُ فيه الرحمة: أي في باطن السور وهو جهة المؤمنين: الجنة.
وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ: أي في ظاهر السور وهو جهة الكافرين: النار.
فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ: أهلكتم أنفسكم بالكفر والمعاصي.
وَتَرَبَّصْتُم: إنتظرتم أن يحلّ شر بمحمد والمؤمنين.
وارْتَبْتُم: وشككتم في نبوة محمد ﷺ وفي القرآن.
وَغَرَّتكُمُ الأَمَانِيُّ: خدعتكم الأماني الباطلة بانتكاس الإسلام.
الغَرُورُ: الشيطان وكل خادع.
لا يُؤخَذُ مِنكُم فِدْيَةٌ: لا يُؤخذ منكم بَدَلٌ أو عوض تفدون به أنفسكم من العذاب.
مأواكُمُ النَّارُ: مقامكم ومنزلكم.

هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا

شرح المفردات

هي مَوْلاكم: هي أولى بكم لما أسلفتم من المعاصي.

ألم يَأْنِ: ألم يَحِن الوقت.

تَخْشَعَ: الخشوع هو اللين والضراعة والانقياد للحق.

لِذكرِ الله: هو القرآن، ويحتمل أن يكون بمعنى تَذَكُّر الله.

وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ: وهو القرآن الكريم.

أُوتوا الكتاب: هم اليهود والنصارى.

الأَمَدُ: الأجل أو الزمان.

فاسقون: خارجون عن حدود دينهم وطاعة ربهم.

المُصَّدِّقين والمصَّدِّقَاتِ: المتصدقين والمتصدقات.

الصِّدِّيقون: الكثيرو الصدق، وهم قوم دون الأنبياء في الرتبة.

الشُّهَدَاءُ: هم الذين قُتلوا في سبيل الله.

بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا

شرح المفردات

أصحابُ الجَحيم: أصحاب النار يلازمونها كما يلازم الصاحب الصاحب.

غَيْثٍ: مطر.

الكفّار: الزرّاع.

يَهِيجُ: ييبس.

يكونُ حُطاماً: فُتاتاً هشيماً متكسراً بعد يبْسه.

سَابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبكم: سارعوا إلى الأعمال الصالحة التي تُوجب مغفرة الله.

مُصِيبَةٍ: هي النائبة والشر.

كِتَاب: المراد بالكتاب هنا علم الله، وقيل المراد به اللوح المحفوظ.

نبرأها: نخلقها

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾
ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا
مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا
ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن
يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ
فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا

شرح المفردات

لِكَيْلاَ تأسَوْا: لكيلا تحزنوا حزن قُنوط.
لا تَفْرَحُوا: فرح بَطَر واختيال.
مُخْتَالٍ: متكبر.
فَخُورٍ: المباهاة بالأشياء التي تدعو إلى المفاخرة كالمال والجاه.
الميزان: المراد به هنا: العدل.
ليقوم النَّاسُ بالقِسْطِ: ليتعاملوا فيما بينهم بالعدل.
وأنزَلْنا الحديد: خلقناه، أو هيأناه للناس.
بأسٌ شديدٌ: قوة شديدة.
قَفَّيْنا على آثارهم: أتبعناهم، وأرسلنا بعدهم.

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

رَأْفَةً: الرحمة الشديدة.

رَهْبَانِيَّةً: رَفض الدنيا وشهواتها والتعبّد في الأديرة.

ابْتَدَعُوها: أحدثوها من عند أنفسهم.

مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِم: أي ما فرضنا عليهم الرهبنة ولا أمرناهم بها.

فما رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايتها: ما قاموا بها حق القيام.

فاسِقُونَ: خارجون عن طاعة الله.

كِفْلَيْنِ: نصيبين (أجرين).

لِئَلاَّ يَعْلَمَ: ليعلم. و(لا) مزيدة للتوكيد.

ألاّ يَقْدِرُون: ألاّ، أصلها أن لا، والمعنى: أنهم لا يقدرون.

سُورَةُ الحَدِيدِ

ايضــاح و دروس

في هذه السورة يُسْبغ الله على ذاته العلية أوصافاً في غاية الكمال، ويبيّن انه خالق الكون ومبدعه والمتصرف فيه بما يشاء.

كما أن في السورة دعوة للمؤمنين إلى التضحية بالنفس والمال لإعزاز دين الله ورفع منار الإسلام، ولكي لا يتمسك البعض بالمال ويضنّ به عن الإنفاق، يصوّر الله حقيقة الدنيا بأنها متاع زائل خدّاع، حتى لا يغترّ بها الإنسان.

وفي السورة بيان عن حقيقة المصيبة والموقف الذي يجب أن يتصرّف به المؤمن تجاهها.

كما أن في السورة إشادة بمعدن الحديد، وها هي حضارة العصر الحديث تقوم على الحديد، وليس غريباً إن سُمِّيت هذه السورة باسم (سورة الحديد).

كما تتحدّث السورة عن رهبنة النصارى وتبيّن أنها بدعة ابتدعوها.

تستهل هذه السورة بقوله تعالى:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ سَبَّح لِلَّهِ ﴾ مَجَّدَ وَعظَّمَ وَنَزَّهَ الله وبرَّأَهُ من السوء والنقصان. وجملة ﴿ ما في السَّماواتِ والأَرْضِ ﴾ تشمل جميع الموجودات علوية وسفلية، فجميع الموجودات تنزّه الله عمّا لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه، وتدلّ على أنه الواحد الأحد، المتصف بجميع صفات الكمال، المبرّأ عن سمات النقص.

والأصل في معنى سبَّح نطق بعبارة « سبحان الله » أي أبعدته عن كل عيب ونقص وعظّمته. فكل موجود في هذا الكون يسبح بطريقة خاصة تدل على التسبيح، وأننا نفقه بعض هذه التسبيحات الصادرة عن الإنسان، ولا

نفقه التسبيحات الصادرة عن الجماد والحيوان والطير، والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بحَمْده وَلكِن لا تَفْقَهُونَ تَسبيحَهُم ﴾ الإسراء: ٤٤.

فقد أثبت الله سبحانه أن لكل شيء تسبيحاً خاصاً، كما أثبت أننا نفقه بعضه ولا نفقه البعض الآخر.

﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم ﴾ فالعزّة حَالة تمنع صاحبها من أن يُغلب، فالله هو القويّ الغالب. وهو ﴿ الحكيم ﴾ والحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل، وحكمة الله: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام والإتقان.

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ﴾ فالله سبحانه هو المالك المتصرف بكل ما في السماوات والأرض ﴿ يُحْيي ويُميتُ ﴾ فهو خلق الحياة والموت، يُفيض بالحياة على الميت فيحيا، ويسلبها من الحي فيموت ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي البالغ القدرة على كل شيء.

ويتابع القرآن ذكر بعض صفات الله التي يختصّ بها دون سواه:

﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

فهو سبحانه ﴿ الأوَّل ﴾ أي السابق في الوجود جميع الموجودات، وجميع الموجودات انبثق وجودها منه.

وهو سبحانه ﴿ الآخِرُ ﴾ أي الذي يبقى بعد فناء جميع الموجودات.

وهو سبحانه ﴿ الظَّاهِرُ ﴾ أي الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة الدالة على وجوده، أو الظاهر فوق كل شيء بقدرته وغلبته.

وهو سبحانه ﴿ البَاطِنُ ﴾ أي المحتجب عن أبصار الخلق، فهو سبحانه لا تدركه الأبصار، أو المطَّلع على ما بَطَن من الغيوب.

وهو سبحانه ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ ﴾ أي محيط علمه بجميع الأشياء لا يغيب عنه شيء منها.

وبعد أن قرَّر القرآن هذه الحقيقة الهائلة عن عظمة الخالق، وأنه بكل شيء عليم، جعل يفصّل ما يتفرّع عن هذه الحقيقة في عالم الوجود:

﴿ هُوَ الَّذي خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وما يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَ مَا كُنْتُم وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فالله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهذه الستة أيام قد لا تكون من جنس أيامنا المعروفة، فإن أيامنا هذه وُجدت بعد خلق الأرض ودورانها حول نفسها، ولا بد أن تكون من أيام الله التي لا يعلمها إلاّ هو سبحانه. وهي مقادير من الزمن غير أيامنا المعروفة وقد جاء في القرآن: ﴿ وإنَّ يوماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدّونَ ﴾ الحج: ٤٧.

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ استوى تأتي بمعنى استولى، أو بمعنى استقر، والعرش في اللغة: سرير الملك الذي يجلس عليه، ويُكنّى بالعرش عن الملك، وتأويل ذلك: هو التصرف في الموجودات والتمكن منها مع عدم المُنازع.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ الولوج: الدخول، فالله يعلم ما يدخل في الأرض من كنوز وبذور وموتى ومياه، ويعلم ما يخرج منها من نبات ومعادن ونفط وغير ذلك. ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فيهَا ﴾ والعروج: الصعود، فالله يعلم ما يصعد في السماء من ملائكة وأرواح وأعمال العباد وغير ذلك، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أين مَا كُنْتُم ﴾ أي أن الله معكم بعلمه وقدرته، وقد نفى العلماء أن يكون المراد بها المعية الذاتية، وجعلوها من قبيل التمثيل لإحاطة علم الله بجميع المخلوقات، وعن ابن عباس أنه فسَّر ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ أي عالم بكم.

﴿ واللهُ بمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ﴾ أي رقيب على أعمال العباد مطَّلع على كل صغيرة وكبيرة.

ويتابع القرآن بيان قدرة الله التي تسيِّر هذا الكون الرحيب:

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ . يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

فالله له السلطان المطلق، والحكم النافذ في السماوات والأرض، وإليه مصير جميع خلقه فيقضي بينهم بحكمه يوم القيامة.

وهو سبحانه جعل الليل والنهار يتعاقبان بحكمته وتقديره، فيدخل كل واحد منهما بالآخر، أو يدخل ما نقص من أحدهما في الآخر ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي عالم بالنيات الخافية في الصدور، وبكل ما يهجس فيها من الخوَاطر.

وبعد أن بيَّن القرآن مظاهر قُدرة الله في الكون وإحاطة علمه بجميع البشر توجه بالخطاب إلى الناس:

﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

﴿ آمنُوا بالله وَرَسُولِهِ ﴾ والخطاب هنا موجه إلى الناس جميعاً سواء من آمن منهم أو من لم يؤمن، أما من آمن فبطلب الثبات على الإيمان، وأما من لم يؤمن فبدعوتهم للإقرار والتصديق بالله ورسوله.

ثم تنتقل الآية إلى الدعوة للإنفاق في سبيل الله الذي هو سبيل البر والخير ونصرة الدين. ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فهذه الآية تنبّه الناس إلى أن الأموال التي في أيديهم ليست أموالهم حقيقة ، بل هي أموال الله سبحانه خوّلهم الاستمتاع بها، ومكّنهم من التصرّف فيها، فهم خلفاؤه ووكلاؤه، وهذا أمر مُسلّمٌ به، فالإنسان يترك بعد وفاته كل ما يقتنيه للغير، وهكذا دواليك، وإذا كان المال هو مال الله تتداوله الأيدي، فليس من الصواب الحرص الشديد عليه والبخل به، وخيرٌ للإنسان أن يدّخره عند الله بالصدقة والإحسان ليكون له أجره وثوابه عند ربه يوم الحساب في الآخرة، من أن يترك ماله كله للورثة، أو يفنى بطارىء من الطوارىء.

وبعد دعوة القرآن للناس إلى الإيمان بالله ورسوله والإنفاق في سبيل الله توجّه باللوم والتوبيخ للكافرين الذين أعرضوا عن الإيمان:

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُون باللهِ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُم مؤمنين . هُوَ الذي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ وإنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

أي ما لكم تكفرون بالله، والرسول محمد يدعوكم للإيمان ويقدّم لكم البراهين الواضحة على وحدانية الله، وصحة رسالته. ﴿ وَقَدْ أخذ ميثَاقَكُم ﴾ أي أخذ الله عليكم العهد بأن تؤمنوا حين وضع فيكم العقل، وأقام لكم الأدلة الساطعة على وجوده سبحانه ﴿ إنْ كُنْتُم مؤمنين ﴾ إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل، فلا عذر لكم أبداً في الكفر.

فالله هو الذي نَزَّل على عبده محمد ﷺ ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي آيات القرآن الواضحات ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظلُماتِ إلى النُّورِ ﴾ أي من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان. وإن الله بكم أيها الناس ﴿ لرَؤُوفٌ ﴾ أي شديد الرحمة ﴿ رَحِيمٌ ﴾ أي عطوف على خلقه بأن رزقهم وأرسل الرسل لهدايتهم.

ثم يتوجّه القرآن بالخطاب للذين يبخلون بأموالهم في سبيل الله، ويتقاعسون عن نُصرة دينه:

﴿ وَمَالَكُمْ ألاَّ تُنْفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ ولله مِيراثُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ لا يستوي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وَالله بِمَا تَعْمَلُون خَبيرٌ ﴾.

فالله يقول لهؤلاء موبخاً: ما الباعث لديكم على ترك الإنفاق في سبيل الله، والله سبحانه سيرث السماوات والأرض، والأموال صائرة إليه، فإذا لم تُنفقوها في سبيل الله ذهبت منكم بعد موتكم دون مقابل، فلا تنتفعون منها بشيء، أما إذا أنفقتموها في سبيل الله فسينالكم من الله الأجر والثواب.

ثم يبيِّن الله بأنه لا يستوي في الفضل والأجر من أنفق ماله وقاتل الأعداء

مع رسول الله ﴿ قَبْلِ الفَتْحِ ﴾ أي قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة. فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل فتح مكة أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح، لأن الأولين فعلوا ما فعلوه عند مسيس الحاجة إلى النصرة بالأنفس والأموال، لقلة عدد المسلمين وفقرهم يومذاك، وكثرة أعدائهم وغناهم، ولأنه لم يكن إذ ذاك غنائم تُنتظر، ولا كان النصر محققاً، فكان الإنفاق أشد على النفس، وكانت الحاجة إليه ملحة، وكذلك كان شأن القتال. ومع عدم استواء فريقي المؤمنين في الأجر والثواب إلاَّ أن الله أثبت لهما ﴿ الحُسْنى ﴾ وهي الجنة، مع تفاوت الدرجات ﴿ والله بما تَعملون خَبير ﴾ أي عليم بما تنفقون في سبيل الله فيجازيكم عليه.

ويحث القرآن المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله لأنهم سيستردونه أضعافاً:

﴿ من ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أجْرٌ كَرِيمٌ ﴾.

سمى الله سبحانه قرضاً كل ما ينفق في سبيل نصرة دينه، وكذلك كل ما ينفق في وجوه الخير ابتغاء مرضاته. والقرض: ما يُدفع من المال على شرط ردّه، وفي ذلك دلالة على أن الله سيرد للمحسن ما أنفق من أموال، وزيادة على ذلك فإن الله سيضاعف هذا البدل للمنفق مع إعطائه أجراً كريماً، وهذا الأجر هو الجنة.

وإنما يقترض المحتاج، والله غني عن العالمين الذي له ملك السماوات والأرض ومن فيهن، وإنما جاء التعبير بالإقراض ترغيباً بالإنفاق وتشجيعاً للمحسنين.

وقد ذكر العلماء شروطاً في القرض الحسن الذي يقبله الله، منها:

أن يكون المتصدّق صادق النية، طيّب النفس يبتغي به وجه الله دون رياء، وأن يكون المال حلالاً، وأن لا يكون رديئاً، وأن يُعطى للأحوج فالأحوج، وأن يكتم الصدقة ولا يتبعها بالمنّ والأذى، وأن لا يستكثرها وإن كانت كثيرة، وأن تكون من المال المحبوب عنده، وأن لا يرى لنفسه عزّة الغنى

ويرى للفقير ذلة الفقر.

وبعد أن رغّب القرآن بالإنفاق، ووعد فاعليه بالأجر الكريم، انتقلت آيات القرآن إلى ذكر جانب منْ جوانب ذلك الأجر الكريم في الآخرة:

﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِم وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾.

فالمؤمنون والمؤمنات يضيء نورهم بين أيديهم وعن أيمانهم، ونورهم على قدر أعمالهم، فهو نور الأعمال الصالحة، ونور الهداية إلى الجنة، ثم يُبشرون بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يتحولون عنها، وهذا الخلود في الجنات هو الظفر والنجاح العظيم.

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى تصوير حال المنافقين: وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وهم يخاطبون المؤمنين ويجري فيما بينهم هذا الحوار المؤثر:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنَافِقُونَ وَالمنَافِقَاتُ لِلَّذين آمنوا: انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ، قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُم فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ ﴾.

وقد رُوي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: انتظرونا حتى نقتبس من نوركم فإنا كنا معكم في الدنيا، فيقول المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور. فضرب الله بين الفريقين بسور، وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار له باب، وهذا السور باطنه من جهة المؤمنين رحمة وسلام وظاهره أي ما يلي المنافقين هو جهنم التي فيها العذاب.

ويتابع القرآن تتمة الحوار بين المنافقين والمؤمنين:

﴿ يُنَادُونَهُم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُم وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حتى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم باللهِ الغَرُورُ . فَاليَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الّذِينَ كَفَرُوا مأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾.

فالمنافقون ينادون المؤمنين من وراء السور: ألم نكن معكم في الدنيا نعمل أعمالكم من صلاة وصيام، فَلِمَ تمتازون علينا، وتُختصون بهذه النِعَم، فيجيبهم المؤمنون: حقاً كنتم معنا، ولكنكم أوقعتم أنفسكم في البلاء، وعملتم ما هو سبب دخول النار ﴿ وَتَرَبَّصْتُم ﴾ أي انتظرتم أن تدور الدائرة علينا فيضعف شأننا، وشككتم في الدين وغرتكم الأماني التي كنتم تأملونها من زوال الإسلام وهزيمة المسلمين ﴿ حتى جَاءَ أَمْرُ الله ﴾ أي بموتكم، ﴿ وَغَرَّكم باللهِ الغَرُورُ ﴾ أي خدعكم الشيطان وزيّن لكم النفاق بما أوقع في صدوركم من الأماني، وبما لوَّح لكم من عفو الله. فاليوم لا سبيل إلى النجاة، ولا سبيل إلى دفع الفدية التي تنجيكم من عذاب النار ولا تقبل منكم ولا من الذين كفروا، فالنار أولى وأحق بكم، وهي بئس المرجع الذي انتهيتم إليه بسبب أعمالكم.

وبعد أن بيّن الله حال المنافقين في الآخرة إنتقل إلى تحذير المؤمنين بأن يكونوا مثل المنافقين أو مثل اليهود والنصارى بقساوة القلب والخروج عن طاعة الله:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلّذين آمنوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ومَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ، وَلاَ يكُونُوا كالّذين أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

أي ألم يحن الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين، وتلين ضارعة عند ذِكْرِ الله، الذي تفرّد بالعظمة والربوبية، وتخشع كذلك لما نزل من آيات القرآن فتعمل بمقتضاها، ولا يكون مَثَلُهُم مَثَل اليهود والنصارى الذين خشعت قلوبهم

ورقّت عند نزول التوراة والإنجيل، ولكن لما طالت المدة بينهم وبين أنبيائهم مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله، وطال عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعها في نفوسهم، فكان ذلك سبباً لقسوة قلوبهم، وكثير منهم أصبحوا خارجين عن طاعة الله، وهذا هو المشاهد اليوم في كثير من الدول التي تعتنق المسيحية واليهودية فنرى الخروج عن طاعة الله ظاهراً في تصرفاتهم، وقسوة القلب مهيمنة على أعمالهم.

ويلاحظ أن هذه الآية فيها عتاب رقيق مؤثّر للمؤمنين لتأخرهم عن استشعار الخشوع والاستجابة الكاملة لما أنزل الله من الحق.

ثم يُعطي الله مثلاً لتأثير مواعظ القرآن في القلب:

﴿ اعْلَمُوا أنَّ اللهَ يُحْيِـي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلون ﴾.

هذه الآية تصوّر تأثير ذكر الله والقرآن في القلب، فكما أن الله يُحيـي الأرض بالماء بعد جفاف زرعها ويبسه، فكذلك القلوب القاسية التي ماتت الرحمة فيها تحيا وتلين بذكر الله وتدبر آيات القرآن الكريم، ولقد بيَّن الله للناس الحجج الواضحة، والدلائل الباهرة على وحدانيته ليستخدموا عقولهم، ويتدبَّروا ما أنزل الله في القرآن من هدى.

ثم يعود القرآن لتأكيد ثواب الإيمان وإنفاق المال في سبيل الله:

﴿ إن الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ[1] وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أجْرٌ كَرِيمٌ . والَّذِين آمنوا باللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقونَ[2] والشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ

---

(١) ﴿ المصّدّقين والمصّدّقات ﴾ بتشديد الصاد أصلها المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء في الصاد بمعنى التصدق.

(٢) الصدّيق: يقال لمن كثر منه الصدق ويقال لمن صدق بقوله واعتقاده وعمله فالصدّيقون هم قوم أقل من الأنبياء درجة في الفضل والرتبة.

أصْحَابُ الجَحِيمِ﴾.

أي إن الذين تَصدّقوا بأموالهم على الفقراء، والذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله وفي وجوه الخير مع الإخلاص واحتساب الأجر من الله، يُضاعف الله لهم ثواب أعمالهم، ولهم ﴿أَجْرٌ كَرِيم﴾ وهو الجنة.

والذين صدَّقوا بوحدانية الله وآمنوا برسله هم في منزلة الصدّيقين، وهم الذين يَلُون الأنبياء في الرتبة. ﴿والشهداء﴾ أي الذين قُتلوا في سبيل الله لهم ثواب الله في الآخرة، ولهم النور الذي ينجيهم يوم القيامة من الظلمات ويهديهم إلى الجنة. والذين جحدوا بوحدانية الله ﴿وكذّبوا بآياتِنَا﴾ أي بالرسل والمعجزات أولئك هم المخلدون في النار.

ولما كان التعلق الشديد بالدنيا يصرف الإنسان عن بذل المال في سبيل الله والعمل بمستلزمات الإيمان جاءت الآية الكريمة التالية تصف حقيقة الدنيا بما يزهده فيها، ويخفف من تعلقه بها:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾.

لقد وصف الله الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو وزينة سواء في الملبس والمسكن، وأنها تفاخر بين الناس في الجاه والحسب، وتكاثر في الأموال والأولاد. ولكن هذه الأمور وسرعة انقضاء نعيمها وبهجتها في حياة الإنسان مَثَلُها: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي كمثل المطر الذي أنبت الزرع فأعجب به ﴿الكفّار﴾ أي الزُرّاع لأنهم يكفرون بذور النبات أي يغطونها بالتراب. ولكن مآل هذا النبات أن ينمو﴿ثم يَهِيجُ﴾ أي يجف بعد خضرته وييبس ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ فيصفر لونه ثم يذبل ﴿ثم يَكونُ حُطاماً﴾ أي يصير هشياً متكسّراً بعد اليبس.

هذا أدق تصوير لحقيقة الدنيا بألفاظ قليلة تظهر إعجاز القرآن حيث أظهرت مشهد الحياة بهذه الصور المألوفة لدى الناس منهية المشهد بصورة الحطام.

هذا شأن الدنيا فما شأن الآخرة؟ إن لها شأناً يجب أن يعمل له حسابه: ﴿وفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَديدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ﴾ هذه الآية حافز للإنسان للتزود لآخرته بالعمل الصالح، ففي الآخرة فريقان: فريق العصاة الذين اغتروا بالدنيا وملذاتها فأعرضوا عن طاعة الله فهم في عذاب شديد، وفريق المطيعين لله فهم في مغفرة الله ورضوانه، ويختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾ والمتاع كل ما انتفع به، والغرور: الأباطيل والخداع، فليست الحياة الدنيا إلاّ متاع باطل خدّاع يجب أن لا يغتر بها المؤمن.

فالقرآن يبرز صورتين لهذه الحياة، صورة تكون فيها الحياة مطية إلى نعيم الله ورضوانه، وذلك إذا أخلص المؤمن في العمل ابتغاء وجه الله، ولازم حدود الله، ولم يتعدّها، وشكر الله على نعمه، واستمتع بزينة الله التي أخرجها لعباده، وفي هذا يقول سبحانه:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعبادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ للّذين آمنوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ الأعراف: ٣٢.

والصورة الثانية تكون فيها الدنيا مطية إلى غضب الله وعذابه في الآخرة وذلك إذا افتخر الإنسان واختال، وبخل بماله على المحتاجين، واسترسل في الشهوات، وتعدّى حدود الله، وَظَلَمَ العباد، وكفر بأَنْعُمِ الله.

وبعد أن بين القرآن حقيقة الدنيا دعا إلى السباق في العمل الصالح الموصل إلى مغفرة الله والنعيم في الآخرة:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾.

فالمسابقة – في نظر القرآن – لا تكون بالحصول على زينة الدنيا، والتفاخر بمقتنياتها، والتكاثر بالأموال، إنما المسابقة المطلوبة تكون بالقيام بالأعمال الصالحة الموصلة إلى مغفرة الله ودخول الجنة. هذه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض فما بالك بطولها، وهذه الجنة هُيئت للذين آمنوا بالله ورسله، وما وَعَدَ الله المؤمنين من المغفرة والجنة فهو عطاء وكرم منه غير واجب عليه، بل هو فضل منه يعطيه من يشاء، وهو سبحانه واسع العطاء، عظيم الفضل.

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن المصيبة بما يخفف وقعها على الأنفس:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

والمراد بالكتاب هنا: علم الله تعالى، وقيل المراد به: اللوح المحفوظ، وهو مستودع مشيئة الله تعالى وكيفيته تخفى علينا.

فالله يخبرنا أن ما أصابنا من مصيبة في الأرض مما يضرنا من قحط، أو نقص في الثمرات، وما أصابنا في أنفسنا من مرض وفقر أو موت، أو غير ذلك مما ينفعنا فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ مثبتة في علم الله ﴿مِنْ قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا﴾ أي من قبل أن يخلقها سبحانه ويظهرها الى الوجود، وهذا يسير سهل على الله لإحاطة علمه بكل شيء. ولقد أعلمنا الله ذلك كي لا يشتد حزننا إذا ما أصابتنا مصيبة فادحة، ولكي لا يدمّر الحزن نفوسنا، بل نستقبل المصيبة بصبر ويقين ونعلم بأنها مقدّرة من الله وأنه لا بد من وقوعها.

وإذا كانت المصيبة مقدّرة من الله، مكتوبة في اللوح المحفوظ، فكذلك النعمة أيضاً، وقد أخبرنا الله ذلك كي لا يشتد فرحنا عند حلول النعم فرحاً يطغينا ويبطرنا ولنعلم كذلك أن النعم مِنْ فضل الله وتَكَرُّمه على عباده وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتاكم واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ والمختال هو المتكبر، والاختيال يكون غالباً في الفعل، والفخر يكون

في القول.

فالله سبحانه لا يحب المتكبرين الذين يباهون الناس ويفاخرونهم، لأن الكبر والفخر يُبعدان المرء عن تذكّر نعمة الله، ويؤذيان عباد الله، ومن علم ان كل شيء مقدّر له وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، وأن كل نعمة مصدرها من الله سبحانه توجَّه بالشكر اليه؛ ومن الشكر معاملة الناس بالتواضع.

ثم يتابع القرآن الكريم فيبيّن صفة هؤلاء المختالين:

﴿الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هو الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾

فالذين يبخلون يعني بهم المختالين الفخورين الذين سبق ذكرهم، ذلك أن المختال الفخور يطغيه الرزق، ويرى أن المال سبب لعزته، لذا يحرص عليه ويبخل به، ولا يكتفي بهذا بل يأمر غيره بالبخل، لكن الله غني عن كل إنفاق فهو محمود في ذاته لا يضره إعراض الناس عن الإنفاق.

ثم يبيّن القرآن الغرض من إرسال الله للرسل والأنبياء إلى الناس وفضله عليهم بخلقه معدن الحديد لينتفعوا به:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ إِنَّ اللهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

فالله سبحانه أرسل الرسل ﴿بالبيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة والشرائع الواضحة ﴿وأَنْزَلنَا مَعَهُمُ الكتَابَ﴾ والكتاب المراد به جنس الكتاب، فيدخل فيه كتاب كل رسول، وهذه الكتب تتضمن الأحكام وشرائع الدين، و﴿الميزان﴾ والمراد به هنا العدل، لأن الميزان هو الذي يتميّز به العدل من الظلم، ﴿ليقوم النَّاسُ بالقِسْطِ﴾ والقسط هو العدل، فالله أعطى الرسل الكتب السماوية التي فيها مقاييس العدل ليعدل الناس فيما بينهم.

ثم يبيّن الله الفائدة من معدن الحديد بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الحديدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ﴾ وأنزلنا الحديد: أي وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس: والبأس هو الشدة في الحرب، كما أن في الحديد ﴿مَنَافِع للنّاس﴾.

هذه الحقيقة يعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً في وقت كان يستعمل فيه الحديد على نطاق ضيق حيث كانت تُصنع منه السيوف والحراب والسهام والدروع وبعض أدوات المنزل. أما الآن في القرن العشرين فقد وضحت منافع الحديد على أعظم ما يكون من الوضوح، فحضارة العصر الحديث تقوم على الحديد.

فالحديد ﴿فيه بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فهو أنسب المعادن لصناعة أدوات الحروب: فالمدافع على أنواعها، والبنادق، والدبابات، والقنابل، والصواريخ، والأساطيل البحرية تُصنع من الحديد.

وفي هذا لفتٌ لأنظار المسلمين لينتفعوا بالحديد ويحضّروا منه ما يدعم قوتهم ويحافظ على سيادتهم وعزّتهم من مختلف أنواع الأسلحة اللازمة كما جاء في القرآن: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

والحديد فيه ﴿منافع للناس﴾ فالسدود الضخمة التي تحتجز ملايين الأمتار المكعبة من المياه تُبنى بالاسمنت المسلح بالحديد، والجسور الضخمة تبنى من الحديد، وكذلك آلات الركوب من السيارات على انواعها، والقاطرات تُصنع من الحديد، زد على ذلك أدوات الصناعة الثقيلة والمعامل والبناء الحديث كل ذلك قائم على الحديد، فما أعظم نعمة الله على الإنسان بهذا المعدن(١).

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ

---

(١) والحديد فيه منافع شتى لجسم الإنسان، فالحديد يوجد في دم الإنسان، وهو أحد مكونات «الهيموجلوبين» المادة الأساسية في كريات الدم الحمراء، كذلك يوجد الحديد في الكبد والطحال والكلى والعضلات والنخاع الأحمر، ويحتاج الجسم إلى كمية من الحديد يتزود بها عن طريق الطعام الموجود في الخضار والحبوب واللحوم، وإذا نقص الحديد في جسم الإنسان تعرض لعدة أمراض أهمها فقر الدم، لذلك يتناول المرضى بفقر الدم أقراص الأدوية الحاوية لمادة الحديد.

عَزِيزٌ﴾ أي وأنزل الله الحديد ليعلم من ينصر دينه ورسله باستعمال آلات الحرب من الحديد في مجاهدة اعدائه، وهم مؤمنون بالغيب لم يروا الله ولا الآخرة، وإن الله قوي على الانتصار على من عاداه، عزيز في انتقامه منهم، لا يقدر أحد على الانتصار عليه.

وبعد أن بيّن القرآن أنَّ الله أرسل رسله بالبينات والشرائع، أتبع ذلك بذكر بعض هؤلاء الرسل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

فالله أرسل نوحاً وإبراهيم عليهما السلام إلى قوميهما لهدايتهما، وإبراهيم قد انتسب إليه أكثر الأنبياء، ومن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بالكتب الإلهية الأربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن. وإبراهيم من ذرية نوح. فالنبوة والكتب الإلهية لم تخرج إلا من ذرّيتهما ولذلك خصّهما الله بالذكر. ﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي أن بعض هذه الذرّية اهتدى بكتب الأنبياء واتبعها، والبعض الآخر خرج عن طاعة ربه وضل سواء السبيل فخرج على الدين جملة وكفر به، أو بقي فيه وارتكب الإثم والعصيان، وهؤلاء كثيرون.

ويتابع القرآن فيذكر رسالة عيسى ويبين أن الرهبانية بِدعة ابتدعها قومه:

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمنوا مِنْهُمْ أجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

فالتقفية جعل الشيء في إثر الشيء على الاستمرار، فالله سبحانه أرسل

عقب نوح وإبراهيم على التتابع رسولاً بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى فأعطاه الإنجيل، وجعل في قلوب الذين آمنوا به واتبعوه رأفة ورحمة على عباده، وجعلهم أيضاً رحماء بينهم.

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ فالقرآن يقرّر أن الرهبانية بدعة ابتُدِعَتْ، وليست من فروض المسيحية وهذا من إعجاز القرآن فالمسيحيون الأوائل لا يعرفون شيئاً عن الرهبنة والأديرة. فقد نشأت الرهبنة والأديرة في مصر وعنها نُقلت إلى سائر بقاع الدنيا، ويقترن اسم الرهبنة في مصر خلال القرنين الثالث والرابع الميلادي[1] فانظر أيها القارىء كيف يكشف القرآن الكريم عن هذه الحقيقة التي لا يعلمها الكثير ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلاّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ﴾ أي ما فرضنا عليهم الرهبنة ولا أمرناهم بها ولكنهم ابتدعوها طلباً لرضوان الله. أو بمعنى: ما أمرناهم إلاّ بما يُرضي الله.

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام.

أحدث النصارى هذه الرهبانية فرعاها الأولون المخلصون حق رعايتها، ثم خلف من بعدهم خلف تظاهروا باتباعها، ولكنهم تركوها باطناً، وضعفت عندهم دواعي التشدد في الطاعة فأخلّوا بما عاهدوا الله عليه، ونذروا أنفسهم له من التزهّد والتخلي للعبادة، بل أكثر من ذلك اتخذوها للترؤس والسؤدد وإخضاع الشعب لأهوائهم، وعاشوا عيشة الترف والبذخ ولين العيش معرضين عن هدى الله، وبذلك خرجوا عن طاعة الله وعلى العهد الذي ألزموا أنفسهم به وهؤلاء كثيرون كما قال سبحانه: ﴿ وكَثِيرٌ منهم فاسِقُونَ ﴾.

---

(١) يعتبر الأنبا أنطوني مؤسس نظام الرهبنة في العالم، وكان مقامه في مصر وقد وضع زياً خاصاً بالنسك متخذاً إياه من زي كهنة الفراعنة، فكان يلبس ثوباً من الكتان الأبيض وهو الزي الذي انتشر بين رهبان العالم، وهو لم يطالب الراهب إلاّ بالصلاة والتقشف والعمل اليدوي وقصد بالتقشف العفاف التام وتوفي سنة ٣٥٦ ميلادية. أما منظم الرهبنة الجماعية فهو الأنبا باخوم المتوفى سنة ٣٤٦ م فقد وضع للرهبنة قوانين لا يزال معمولاً بها حتى الآن وكانت هي الأساس التي قامت عليه حياة الأديرة في أوروبا (نقلاً باختصار عن موسوعة مصر للأستاذ أحمد حسين)

ويكفي أن تُطالع عشرات الكتب عما شاب الأديرة والرهبنة من شوائب في العصور الوسطى لتخرج بهذه النتيجة التي سجّلها القرآن عليهم: ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾.

أما الذين آمنوا ورعوا ذلك العهد فقد وفّاهم الله أجرهم وذلك قبل رسالة محمد ﷺ[1] ﴿ فآتينا الذين آمنوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾.

ومعنى تلك الرهبانية التي ابتدعوها: تحمّل التكاليف الدينية زيادة على ما كُلّفوا به، فقد زَهدوا في الدنيا، ولزموا الخلوات، واعتزلوا الخلق، ولبسوا الخشن من اللباس، واقتصروا في الأكل على الأطعمة النباتية، وتركوا النساء، وانقطعوا للعبادة.

وبعد ذلك انتقل القرآن إلى مخاطبة المؤمنين من كافة الملل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

قد يكون الخطاب في الآية لأهل الكتاب - أي اليهود والنصارى - طُلب إليهم تقوى الله والإيمان برسوله محمد ﷺ مع الوعد بإيتائهم نصيبين من الأجر، نصيب على الايمان بالأنبياء قبل محمد، ونصيب على الايمان بمحمد مع ايتائهم النور الذي يسعى أمام المؤمنين يوم القيامة، هادياً إياهم إلى الجنة.

ومن الممكن أن يكون الخطاب في الآية لمن آمن بمحمد ﷺ أُمروا بالتقوى والاستمرار والثبات على الايمان، مع وعدهم بنصيبين من الأجر أيضاً، نصيب على إيمانهم بمحمد، ونصيب على إيمانهم بالأنبياء قبله، كما وُعدوا النور والمغفرة لذنوبهم.

---

(١) أما بعد رسالة محمد ﷺ فالمطلوب الإيمان به واتباع شريعته وقد جاء في القرآن: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام ديناً فَلَن يُقْبل مِنْهُ وَهُوَ في الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾.

ويختم الله هذه السورة بقوله:

﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ الله، وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾.

﴿ لئلا يعلم ﴾ أي ليعلم ﴿ أهل الكتاب ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ أي لا يقدرون ﴿ عَلَى شيءٍ مِنْ فَضْلِ الله ﴾ أي أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذي تفضل به وأعطاه لأُمَّة محمد وخصهم به. فاليهود والنصارى كانوا يظنون أن النعيم الأخروي خاص بهم، واليهود كانوا يرون أن الله فضلهم على جميع الخلق، فأعلمنا الله في هذه السورة أن الله أعطى أُمَّة محمد ﷺ من الفضل والكرامة ما لم يؤتهم، لأن الفضل كله بيد الله يعطيه من يشاء والله صاحب الفضل العظيم.

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

التفسير الكبير للفخر الرازي

تفسير القرآن لابن كثير

تفسير فتح القدير للشوكاني

تفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي

تفسير روح المعاني للألوسي

المنتخب في تفسير القرآن- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني

تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق

في ظلال القرآن للاستاذ سيّد قطب

تفسير سورة الرحمن وسور قصار للدكتور شوقي ضيف

تفسير سورة الحديد للشيخ محمد مصطفى المراغي- مجلة الأزهر- مجلد ١٢.

تفسير سور من القرآن للشيخ عبد الرحيم فرغل البليني- مجلة الإسلام- مصر- مجلد ٢١ - ٢٢ - ٢٣.

تفسير سور من القرآن للأستاذ أحمد حسين- مجلة منبر الإسلام- القاهرة- سنة ١٩٧٢.

فهرس السُّوَر

وفي الختـام ..

أقدّم شكري وامتناني للذين آزروني في هذا التفسير وهم الأساتذة :

الشيخ حسين غزال

الشيخ شريف شكر

الشيخ خليل الميس

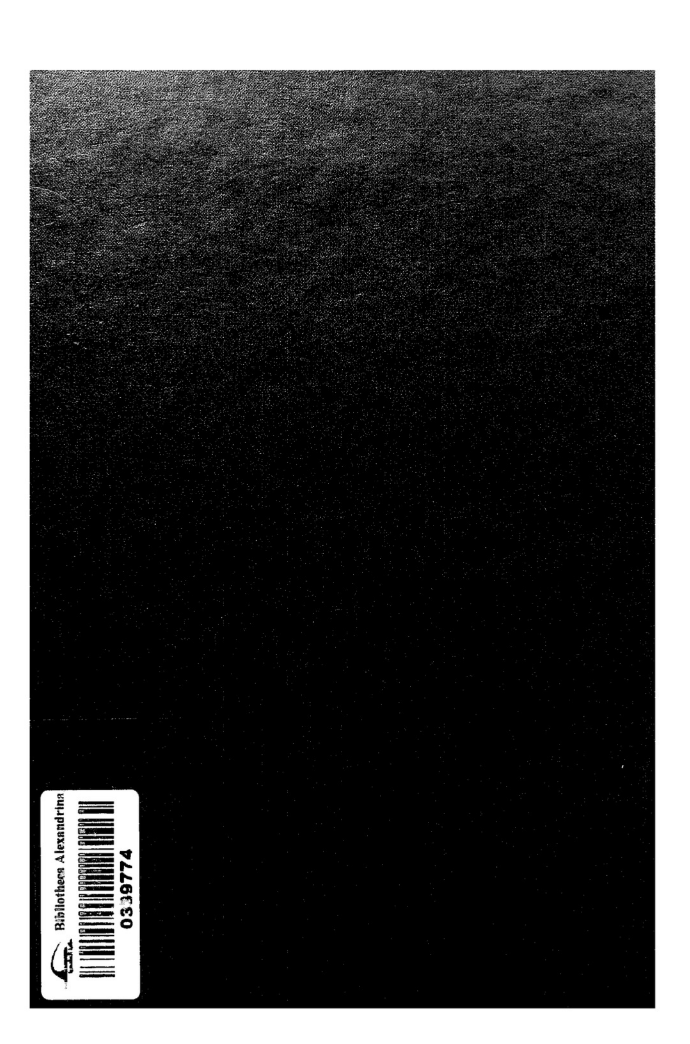
كما اقدم شكري للاستاذ مصطفى قصاص وللاستاذ شفيق اللبان على ملاحظاتهم القيمة

راجيًا مِن المولى أن يتقبّل مِنّا هَذا الجهد ، وَأن يكونَ خَالِصًا لوجهِهِ الكريم .

المؤلف

كتب للمؤلف :

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- تفسير جزء عمّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات


Bibliotheca Alexandrina
0339774